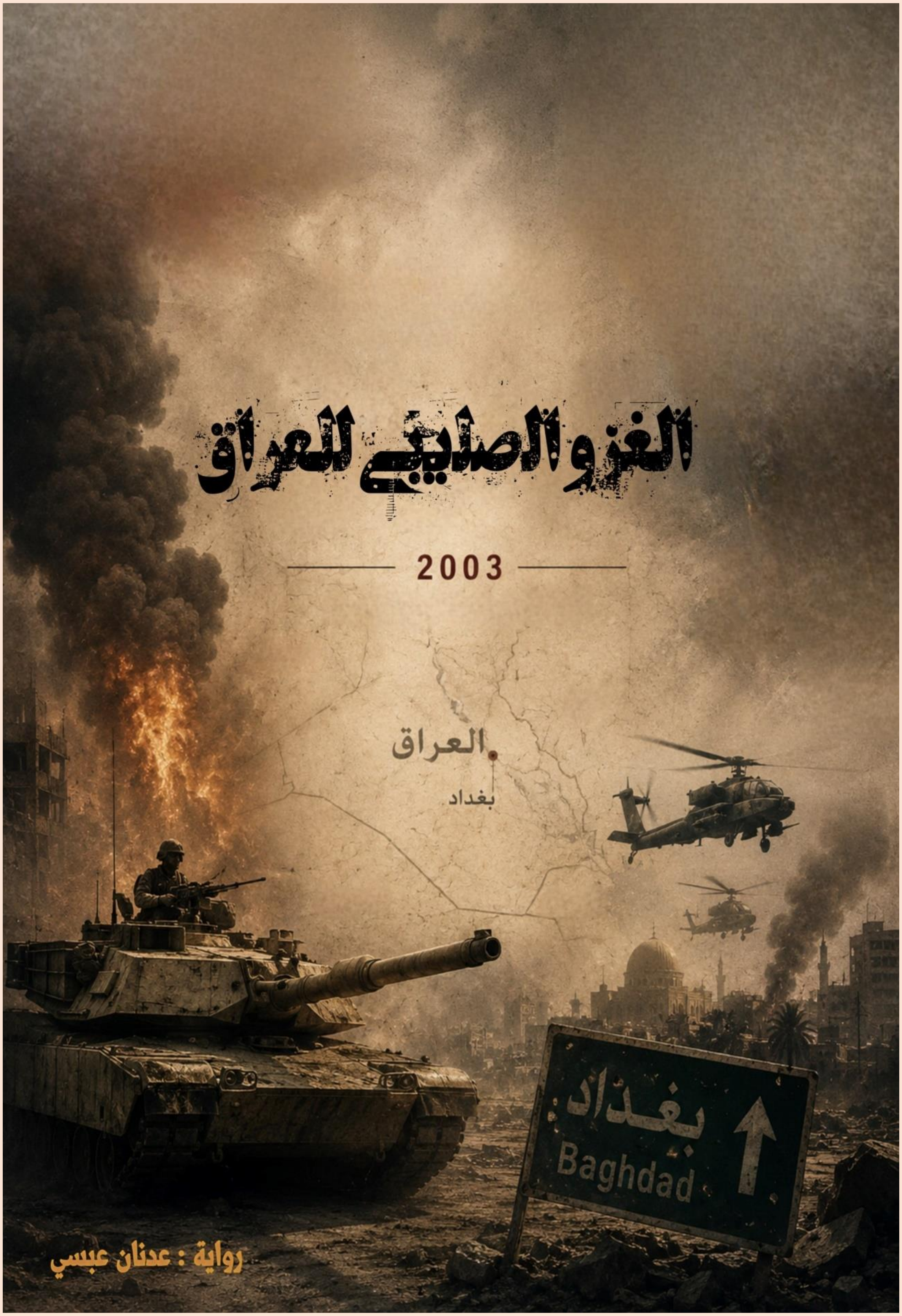

الغزو الصليبي للعراق
2003
العراق
بغداد
بغداد
Baghdad
رواية : عدنان عبسي

المُقَدِّمَةُ

كانتْ صورةُ حاملةِ الطائراتِ الأمريكيةِ تتصدرُ الإعلامَ العالميَّ، ويُعلنُ بوشُ الابنُ حملتَهُ بكلِّ وقاحةٍ وصلفٍ ضدَّ المسلمينَ، فينطقُ بمَا يستحِي حكامُنَا منْ قولِهِ: "إنَّهَا الحربُ الصليبيةُ"

كانَ استفزازًا لكلِّ غيورٍ في هذهِ الأمةِ المليارية، وكنتُ منْ بينِ أولئكَ الذينَ احترقتْ قلوبُهُمْ وهمْ يرونَ الطغيانَ يوشكُ أنْ يكسرَ عزةَ هذهِ الأرضِ في قلوبِ العربِ والمسلمينَ؛ إنَّهَا بلادُ الرافدينِ، أرضُ الخلافةِ الإسلاميةِ، ومنبعُ الحضارةِ البشريةِ

تسارعَ الزمنُ وتسارعتْ خطَايَ نحو بغدادَ، وبصحبةِ عشراتِ الآلافِ منَ المتطوعينَ كانتْ روحُ المقاومةِ تصارعُ أيدِي الخيانةِ الرافضيةِ وعملاءَ العدوِّ الصليبيِّ. كانَ صدامُ حسينَ وكانَ فدائيوه، كانَ كلُّ شيءٍ يضطربُ وتقتربُ النهايةُ في فصلٍ قديمٍ يتكررُ معَ الزمانِ: ابنُ العلقميِّ الرافضيُّ، والخليفةُ العباسيُّ، ومليونُ نفسٍ تموتُ في أرضِ الرافدينِ! واليومَ أرى الجثثَ المتفحمةَ في شوارعِ بغدادَ وكأنَّ المليونَ ستكونُ واقعًا جديدًا

هذهِ قصتِي منْ واقعِ الحربِ الصليبيةِ الجديدةِ بينَ شوارعِ بغدادَ والفلوجةِ والقائمِ، أحكِي عنِ احتلالِ بغدادَ وتحريرِ الفلوجةِ، ونشأةِ نواةِ دولةِ الخلافةِ الإسلاميةِ.

التاريخُ عبرةٌ لكلِّ معتبرٍ، وبهِ يستنيرُ السائرُ.

[الحقيقةُ الغائبةُ]

عندمَا سمعتُ فتاوَى الشيخِ أسامةَ -رحمَهُ اللهُ- وبعضِ العلماءِ -فكَّ اللهُ أسرَ الأسيرِ منهمْ ورحمَ القتيلَ- كنتُ قليلَ العلمِ؛ ففهمتُ كلامَهمْ أنْ أذهبَ وأشاركَ في دفعِ الصائلِ الصليبيِّ معَ الجيشِ العراقيِّ أوْ غيرِهِ، وما كنتُ أعلمُ حينَهَا حكمَ هذهِ الجيوشِ .



فِي منتصفِ شهرِ مارسَ ٢٠٠٣ م (١٤٢٤ هـ)، تحركتُ منْ بلدي إلَى بغدادَ مرورًا بسوريَا، حيثُ نزلتُ فِي مطارِ دمشقَ ولمْ يكنْ يعرفُنِي أحدٌ. وقتَهَا كانتْ جماعةُ أنصارِ الإسلامِ هِي غايتِي ووجهتِي، ولكنَّ أحدَ جيرانِي كانَ عراقيًّا ويعلمُ خبرِي لأَنِّي شاورتُهُ فِي بعضِ أمرِي -ظنَّ أنَّهُ يساعدُنِي- فأخبرَ قريبَهُ الذي يعملُ فِي سفارةِ العراقِ حينَهَا بأنْ يساعدَنِي، وأعطَاهُ اسمِي كاملًا وموعدَ طائرتِي .

تفاجأتُ وأَنَا فِي صالةِ المطارِ برجلٍ يرتدِي بدلةً ينادِي باسمِي، فكرتُ أنْ لا أردَّ ولكنْ لمْ يكنْ هناكَ خيارٌ غيرُ أنْ أقولَ: أَنَا هنا. رحَّبَ بِي وقالَ لِي: تعالَ خلفِي. تعقبتُهُ حتى منصةِ المسؤولِ عنْ ختمِ الدخولِ، فأخذَ جوازِي وختمَهُ وردَّهُ إليَّ وقالَ لِي: مرحبًا بكَ أيُّهَا الفدائيُّ .

معكَ مسؤولُ السفارةِ العراقيةِ، أخبرَنَا عنكَ فلانٌ لاستقبالِكَ" -فلانٌ هذا لا " أعرِفُهُ ولكنْ لاحقًا علمتُ أنَّهُ عمُّ جارِنَا العراقِيّ- أخذَنِي بسيارتِهِ حتى مقرِّ السفارةِ العراقيةِ في دمشقَ. كانتِ المفاجأةُ أمَامِي ثلاثُ حافلاتٍ قدِ امتلأتْ بالشبابِ ستنطلقُ منتصفَ الليلِ إلَى بغدادَ علنًا هكذا.. نعمْ، كلُّ الناسِ ترانَا قالُوا لِي: هذهِ الرحلاتُ يوميةٌ منذُ أكثرَ منْ أسبوعٍ. أولَ الأمرِ كنتُ خائفًا، لأنَّ ما حدثَ لمْ يكنْ خطتِي، لكنْ بعدَهَا عندمَا رأيتُ الشبابَ منْ كلِّ الجنسياتِ واللغاتِ زادَ حماسِي وهمتِي، وأصبحتُ متشوقًا للوصولِ إلَى بغدادَ وكلِّي عزيمةٌ لقتالِ هؤلاءِ الغزاةِ الصليبيينَ.

تحركتِ الباصاتُ منْ دمشقَ مرورًا بديرِ الزورِ والبوكمالِ، وهناكِ كانَ ختمُ دخولِنَا وتسجيلُ الأسماءِ. وجدتُ نفسِي أحملُ الرقمَ ٢٥ ألفًا وبضعَ مئاتٍ، هذا كانَ رقمَ المتطوعينَ الذينَ دخلُوا عبرَ هذا المعبرِ قبلِي -سبحانَ اللهِ!- دخُولِي هذا كانَ قبلَ إحدَى وعشرينَ يومًا منِ احتلالِ بغدادَ. وهكذا مرَرْنَا على مدينةِ القائمِ وهيتَ والرماديِّ حتى دخلْنَا بغدادَ منتصفَ ليلةِ ٢٠ مارسَ ٢٠٠٣ م /١٧ محرَّمَ ١٤٢٤ هـ

وكانَ مقرُّنَا فندقًا هوَ أكبرُ فنادقِ بغدادَ وقدْ غدَا مضافةً للمتطوعينَ، ويشيرونَ إلينَا بـ "المطوعينَ العربِ" رغمَ وجودِ العجمِ معنَا. لكنْ معَ الأسفِ، في هذا الفندقِ يتمُّ فرزُ العربِ وأخذُ العجمِ إلَى فندقِ فلسطينَ وحدَهمْ.

وسنأتِي على ذكرِ السببِ لاحقًا إنْ شاءَ اللهُ؛ فهناكِ عِبَرٌ مهمةٌ في هذهِ البدايةِ قصدتُ سردَهَا لأنَّ التاريخَ يعيدُ نفسَهُ، ولأنَّ الدروسَ لا بدَّ منْ توثيقِهَا.

أمُّ قصرٍ مدينةُ الصمود

كنَّا في انتظارِ وجبةِ العشاءِ بعدَ رحلةٍ طويلةٍ منْ دمشقَ حتى بغدادَ، وكانَ عددُنَا يقاربُ الثلاثةَ آلافٍ في فندقِ السديرِ. فجأةً سقطَ صاروخُ كروزَ الأمريكيُّ في إحدَى المناطقِ القريبةِ، وتهشَّمَ زجاجُ الصالاتِ الأرضيةِ في الفندقِ، وحدثَ هرجٌ ومرجٌ وهروبٌ إلَى البواباتِ دونَ قصدٍ منَّا جميعًا -أظنُّ لمْ يبقَ أحدٌ في الصالةِ إلَّا بعددِ الأصابعِ-. حينَهَا سمعتُ أحدَ ضباطِ الجيشِ العراقِيِّ يصيحُ فينَا أمامَ بوابةِ الفندقِ: "إلَى أينَ الهروبُ؟ ولماذَا جئتمْ إذًا؟!". تراجعْنَا جميعًا وعدْنَا إلَى داخلِ

صالاتِ الفندقِ باستحياءٍ، وبدأَ الجميعُ يفهمُ معنى هذهِ الحربِ الحقيقيَّ، إنَّهَا حربُ إبادةٍ: صواريخُ مرعبةٌ، وقنابلُ عنقوديةٌ، وجواسيسُ على الأرضِ.



في صباحِ اليومِ التالي قامَ ضابطٌ برتبةِ رائدٍ في الجيشِ العراقيِّ بالنداءِ: "أَيُّ شخصٍ لا ينتمِي لدولةٍ عربيةٍ يأتي هنَا". اجتمعَ بعضُ الشبابِ منْ جنسياتٍ مختلفةٍ: أفغانٌ، وباكستانٌ، وشيشانٌ، وشابٌّ واحدٌ فرنسيُّ الأصلِ والجنسيةِ -كنتُ قدْ صادقتُهُ في الطريقِ لأنَّهُ لمْ يجدْ منْ يتحدثُ معهُ باللغةِ الفرنسيةِ غيرِي- هذا الشابُّ

دخلَ الإسلامَ قبلَ عامينِ كمَا ذكرَ لِي، وجاءَ غيرةً على بلادِ المسلمينَ. أخبرَهمُ الضابطُ بعدَ اجتماعِهمْ إنَّهُ سيتمُّ نقلُهمْ إلَى فندقِ فلسطينَ؛ حيثُ هناكَ مقرُّ الأجانبِ. حزنَ الجميعُ لهذا القرارِ وحاولْنَا مراجعةَ الضابطِ، فقالَ إنَّ هذا توجيهٌ منْ جهاتٍ عليَا.

عندمَا اشتدتِ الحربُ تمَّ وضعُ هؤلاءِ الشبابِ في مناطقَ حساسةٍ كدروعٍ بشريةٍ؛ حتى يحدثَ صدامٌ بينَ الأمريكانِ ودولِ هؤلاءِ الشبابِ باعتبارِ أنَّهمْ رعايا أجانبُ تمَّ استهدافُهمْ -أخبرَنِي بذلكَ أحدُ الباكستانيينَ الذينَ كانوا معنَا ليلتَهَا عندمَا التقينَا بعدَ سقوطِ بغدادَ.

كانَ جيشُ التحالفِ الصليبيّ يقاتلُ برًّا في بلدةِ أمّ قصرٍ أكثرَ منْ عشرةِ أيامٍ لا يستطيعُ تجاوزَ المنطقةِ إلَى حدودِ البصرةِ؛ بسببِ شراسةِ المقاومةِ، وبرزَ القادةُ المتطوعونَ العربُ في تلكَ المعاركِ على غيرِ المتوقعِ؛ حيثُ كانتْ لهمْ حريةٌ مشروطةٌ.

عندمَا دخلْنَا معسكرَ التدريبِ أوقفُونَا في ساحةٍ كبيرةٍ جدًّا، كانَ العددُ كبيرًا واصطفتْ بجانبِ هذهِ الساحةِ باصاتُ ركابٍ مثلَ التي أتينَا بهَا منْ دمشقَ.. صاحَ رجلٌ فينَا بمكبرِ الصوتِ: "الآنَ سنبدأُ، ولكنْ قبلَ ذلكَ مَنْ يريدُ الرجوعَ إلَى دمشقَ ويشعرُ بأنَّهُ غيرُ مستعدٍ لمواصلةِ المشوارِ فليذهبْ إلَى هذهِ الباصاتِ ولنْ نلومَهُ، سيعودُ منْ حيثُ أتى". تعجبتُ حينَ رأيتُ المئاتِ يذهبونَ إلَى الباصاتِ، وكانَ بقربِي صديقٌ لِي جئنَا معًا، فوضعَ يدَهُ أمامَ عينَيَّ وقالَ لِي: "لَا تنظرْ، اثبتْ

ففَها الإمتحانُ ولا تخفْ".. كانتْ مشاعرِي مضطربةً، وأصابَنِي الذهولُ وأَنَا أرى غالبَ مَنْ جاءَ معنَا يعودُ قبلَ أنْ نبدأَ.

[بدايةُ الخيانةِ]

بدأَ التدريبُ بحفرِ الخنادقِ وبدأتُ أفهمُ كلَّ يومٍ كيفَ تدورُ الحربُ. كانَ جيشُ التحالفِ الصليبيِّ يحاولُ الدخولَ إلَى العراقِ عبرَ بلدةِ أمِّ قصرٍ الحدوديةِ معَ الكويتِ؛ هجومٌ بريٌّ عنيفٌ بمصحابه طيرانٌ حربيٌّ مكثفٌ وصواريخُ منَ البارجاتِ.. إنَّهَا حربٌ بريةٌ وبحريةٌ وجويةٌ! كانتِ الخطةُ في ظاهرِهَا اكتساحًا برِّيًّا حتى الوصولِ إلَى بغدادَ، والحقيقةُ أنَّ هناكَ مؤامرةً مكتملةَ الأركانِ يقودُهَا الشيعةُ والعملاءُ المنافقونَ.

عندمَا دخلْنَا سكنَ المعسكرِ جمعُونَا وقالُوا لنَا: "اتفقتْ قيادةُ الجيشِ سابقًا معَ المطوعينَ العربِ أنْ تكونَ قيادتُهم منْهمْ، بحيثُ يكونُ لكلِّ خمسينَ شخصًا قائدٌ يختارُونَهُ منْهمْ حسبَ الخبرةِ، فاختارُوا مجموعاتِكمْ والقادةَ حتى يتمَّ إرسالُكمْ إلَى الخطوطِ الأماميةِ".

أنشأْنَا المجموعاتِ، وكانَ في مجموعتِي أحدُ طلابِ العلمِ الشرعيِّ منَ اليمنِ يدرسُ في جامعةِ الإيمانِ، كانَ كثيرًا ما يجلسُ معِي ويقولُ لِي: "إذا انتصرَ صدامُ سيعبدُهُ هؤلاءِ العراقيونَ، وإذا انتصرتْ أمريكَا حكمَ الصليبيونَ بلادَنَا! إنَّهَا ورطةٌ وقعْنَا فيهَا، هلْ نقاتلُ معَ الجيشِ ونشاركُ في تمكينِ صدامَ، أمْ نتراجعُ وربمَا انتصرَ الصليبُ؟!". كلامُهُ هذا جعلَنِي ألحظُ أشياءَ ما كنتُ أنظرُ إليهَا: تماثيلُ صدامَ في كلِّ مكانٍ، أقوالُهُ المأثورةُ وحكمُهُ مكتوبةٌ في الشوارعِ والمدارسِ والمستشفياتِ،

على كلِّ جدارٍ كلمةٌ.. كلماتٌ تشبهُ الأحاديثَ النبويةَ وكلامَ الحكماءِ لكنَّهَا منسوبةٌ إليهِ . كانَ وضعُنَا في بغدادَ تلكَ الأيامَ يدورُ بينَ قصفٍ وتخفٍّ، وطائرةُ الموتِ (بي 52)تسقطُ العنقوديَّ فوقَ رؤوسِ الناسِ لا تبالِي. كلمَا قصفُوا معسكرًا ينتشرُ خبرُ اعتقالِ الجاسوسِ الذي نسَّقَ معَ التحالفِ في القصفِ؛ الخيانةُ في كلِّ مكانٍ، والشيعةُ في قمةِ النشوةِ، والجيشُ لا تفرزُ فيهِ السنيَّ منَ الشيعيِّ، ولا معاركُ بريةٌ في بغدادَ، فالتحالفُ ما زالَ بعيدًا عنْهَا، حتى جاءَ يومُ الغدرِ الكبيرِ وظهرتْ خطةُ الصليبيينَ الحقيقيةُ.

حدثَ التفافٌ على الدفاعاتِ، وقامتْ حاملاتُ الجنودِ والدباباتِ وغيرُهَا بإنزالِ القواتِ غربَ بغدادَ في طريقِ منطقةٍ تسمى الرضوانيةَ؛ ليتمَّ الدخولُ إلَى مطارِ

بغدادَ والاستيلاءُ على زمامِ الأمورِ. تمَّ سحبُ كلِّ الدفاعاتِ، وخلعَ العساكرُ ملابسَ الجيشِ وتركُوا الدباباتِ بلَا أحدٍ في مداخلِ الجسورِ.

لَمْ يكنْ مستعدًّا سوى الحرسِ الجمهوريِّ الخاصِّ وفدائيِّي صدامَ -وهمْ شبابٌ لا تتجاوزُ أعمارُهمُ العشرينَ عامًا-. كنتُ معَ صديقِي نشرحُ للشبابِ في المعسكرِ خطورةَ الشيعةِ، ولَمْ نكنْ نعلمُ أنَّ معظمَ الجيشِ الذي معنَا شيعةٌ! حتى كانَ ذلكَ اليومُ الذي لنْ أنسَاهُ أبدًا، جاءتْ سيارةٌ عسكريةٌ مستعجلةٌ ودخلتْ ساحةَ المعسكرِ -المعسكرُ كانَ وقتَهَا مدرسةً- وأخذَ الضابطُ يصيحُ: "نريدُ متطوعينَ للاستطلاعِ، هناكَ خبرُ وصولِ الأمريكانِ عندَ جسرِ المثنَّى".

قامَ صديقِي الذي كانَ يحذرُ منَ الشيعةِ وقمتُ معهُ وآخرونَ، فقالُوا لنَا: "فقطْ ثلاثةٌ، هذهِ التعليماتُ الجديدةُ". تمَّ حلُّ المجموعاتِ القديمةِ وصارتْ كلُّ سيارةٍ تحملُ ثلاثةَ عربٍ وسبعةً منَ الجيشِ. أخذُوا صديقِي -فقدْ كانَ مدربًا- ومعهُ سوريٌّ وتونسيٌّ للاستطلاعِ، فكانتْ أولَ غدرةٍ في معسكرِنَا

ذهبتِ السيارةُ العسكريةُ إلَى جسرِ المثنَّى، وأثناءَ الطريقِ تشاجرَ العساكرُ معَ صاحبِي فقالُوا لهُ: "أنتَ تتكلمُ في الشيعةِ بالليلِ، والآنَ سنقتلُكَ قبلَ أنْ يقتلَكَ الأمريكانُ!". هكذا حكَى لِي الأخُ السوريُّ الذي نجَا يومَهَا منَ الموتِ.

[الرضوانيةُ.. الحقيقةُ المخفيةُ]

كانَ البردُ شديدًا لدرجةِ أَنّي وبعضَ الشبابِ كنَّا نتيممُ لصلاةِ الفجرِ. وفي يومِ

الغدرةِ بعدَ الفجرِ تمَّ توزيعُ السلاحِ، وامتلأَ المخزنُ بسلاحِ البيكا وقاذف آر بي جي والكلاشنكُوفِ أصابنَا الفرحُ والشعورُ بالقوةِ؛ فقدْ كنَّا نتوقُ لقتالِ الغزاةِ ونظنُّ أننَّا أحفادُ الصحابةِ، ننتظرُ اللقاءَ فقطْ.

كانتْ أغانِي كاظمَ الساهرِ تنبعثُ منْ سياراتِ العساكرِ تزيدُهمْ حماسًا، ولمْ أكنْ أعلمُ وقتَهَا أنَّ كاظمَ الساهرِ الفنانَ العراقيَّ رافضيٌّ! كنتُ أنَا وبعضُ الشبابِ نضيقُ عندَ سماعِ هذهِ الأغانِي وننصحُهمْ بأنَّ الوقتَ للتوبةِ والقرآنِ. كنَّا نحلمُ بجهادٍ يعيدُ للعراقِ مجدَ الإسلامِ -بغدادَ الرشيدِ-. جاءَ الضابطُ في يومِ الغدرةِ يتكلمُ بحماسٍ شديدٍ ويذكرُنَا بالشهادةِ والنصرِ، وكنتُ في حيرتِي أتذكرُ كلامَ أبِي -رحمَهُ اللهُ-: "يَا

ولدي لا أحولُ بينكَ وبينَ اللهِ، ولكنْ لا بدَّ منْ علمٍ تدركُ بهِ الحقَّ"، فأقولُ لهُ:

يَا أبِي أريدُ الشهادةَ

وأعودُ إلَى عصرِ ذلكَ اليومِ حينَ ودَّعَنِي صاحبِي ومعهُ السوريُّ والتونسيُّ،

وخرجتْ سيارتُهمْ منَ المعسكرِ والضابطُ يطمئنُنَا سيعودونَ قريبًا بأخبارٍ سارةٍ.

بعدَ المغربِ جاءَنَا نداءٌ بالجمعِ ثمَّ قسمُونَا قسمينِ، كنتُ في القسمِ الذي أخذُوهُ

إلَى منطقةِ الرضوانيةِ -لمْ يخبرُونَا عنْ خطّ سيرِنَا- عبرَ باصاتٍ خاصةٍ. توقفتِ

الباصاتُ عندَ مكانٍ لا نعلمُهُ، وأمرُونَا أنْ ننزلَ ونسيرَ على الأقدامِ على جانبَيْ

طريقٍ مسفلتٍ، وصلنا بعدَ حوالي خمسِ ساعاتٍ إلَى تقاطعٍ بهِ أشجارٌ محترقةٌ! قالُوا

لنَا: ستكونونَ هنَا خطَّ دفاعٍ متأخرٍ، والأوامرُ: "لَا تطلقْ رصاصةً دونَ تعليماتٍ مهما يحدثْ".

في أثناءِ سيرِنَا على الأقدامِ رأيتُ مدفعًا متوجهًا إلَى السماءِ بزاويةٍ وبقربِهِ سجادةٌ ولا أحدَ عندَهُ، سألتُ المسؤولَ قربِي: لِمَاذا لا يوجدُ أحدٌ هنا يستخدمُهُ؟ ردَّ لِي بهدوءٍ: "لَا عليكَ، سيأتي أحدهُمْ". تكررَ هذا المشهدُ -مدافعُ في وضعِ الإطلاقِ- فيما يبدو أنَّ مَنْ كانَ فيهَا انسحبَ قبلَ وقتٍ قصيرٍ؛ لأَنِّي بعدَ الفجرِ وجدتُ بقربِ إحداهَا ماءً وتمرًا وذخيرةً كثيرةً جدًّا. سألتُ عنْ هذا المدفعِ فقالُوا لِي هوَ مضادٌّ للطيرانِ، كنتُ وقتَهَا لا أعرفُ استخدامَ أيِّ سلاحٍ سوى الكلاشنكُوفِ بصورةٍ بدائيةٍ، لكنَّ داخلِي هوَ الذي يقاتلُ.

وصلْنَا منطقةَ تقاطعٍ لشارعينِ كنَّا لا نعرفُ تضاريسَ المكانِ حتى أشرقتِ الشمسُ، فاكتشفْنَا أنَّنَا قطعْنَا جسرًا على نهرِ الفراتِ، وأنَّ كلَّ الشبابِ وعددُنَا لا يتجاوزُ الأربعينَ شابًّا ليسَ بينَنَا عراقيٌّ! قدْ وضعُونَا هنَا وانسحبُوا في الظلامِ. وقبلَ أنْ نفهمَ ما حدثَ سمعْنَا فجأةً أزيزًا كأنَّهُ صوتٌ منْ أعماقِ الأرضِ، ربمَا زلزالٌ أوْ بركانٌ، وصاحَ أحدُنَا: "انظرُوا في الأفقِ الغربِيّ". غبارٌ كثيفٌ لا ترى ما وراءَهُ، سكنَ الصوتُ فترةً بعدها انقشعَ الغبارُ وبدَتْ لنَا آلياتٌ عسكريةٌ على مدِّ البصرِ، وكانَ أكثرَهَا وضوحًا الدباباتُ. تنازعْنَا بينَنَا، بعضُنَا يقولُ: هذا الجيشُ العراقيُّ، وآخرُ يقولُ: يَا إخوةُ همُ الصليبيونَ العلوجُ! وهكذا نتجادلُ ونبحثُ عنِ الرائدِ العراقِيِّ قائدِ المتحرِّكِ ولا نجدُ لهُ أثرًا حولَنَا. شعرتُ حينَهَا بالخوفِ حقيقةً: "مَا هذا؟!" كأنَّهُ حلمٌ، هلْ يعقلُ أنَّهمْ وضعُونَا للأمريكانِ طُعْمًا؟ .

تحركتِ الآلياتُ ونحنُ ننظرُ ونتمنَّى أنْ تكذبَ عيونُنَا، فقدْ أصبحَ واضحًا رسمُ الصليبِ في مقدمةِ الدبابةِ، وهذا يعني شيئًا واحدًا: إنَّهَا الخيانةُ والغدرُ. كانتِ الآلياتُ تتجهُ صوبَنَا تمامًا، فنحنُ في طريقِهَا إلَى الجسرِ لدخولِ بغدادَ منَ الناحيةِ الغربيةِ. وصاحَ أحدُ الشبابِ وكانَ ليبيًّا: "أطلقُوا النارَ عليهمْ!" فسبقتْهُ قذيفةٌ منْ إحدَى الدباباتِ تجاهَنَا، ولمْ تتوقفْ نيرانُهمْ حتى نفدتْ ذخيرتُنَا جميعًا، وعمَّ الصمتُ المكانَ. توقفتِ الدباباتُ والهمراتُ وحاملاتُ الجنودِ قرابةَ نصفِ ساعةٍ، كنَّا وقتَهَا نحاولُ الانسحابَ وبينَنَا أربعةُ جرحَى، وإذا صعدْنَا الجسرَ كنَّا تحتَ نيرانِهِمْ وعلمُوا أنَّا أحياءٌ. حاولْنَا عبورَ النهرِ ولكنْ سرعانَ ما عدْنَا جميعًا مستسلمينَ للقدرِ تحتَ الجسرِ، فليسَ هناكَ أحدٌ منَّا يعرفُ السباحةَ .



هنا كانتْ أولُ مواجهاتِ بغدادَ في حيِّ الرضوانيةِ، الذي يقعُ في جانبِ الكرخ غربَ مدينةِ بغدادَ، ويضمُّ أحدَ قصورِ الرئيسِ العراقيِّ السابقِ صدامَ حسينَ تحتَ اسمِ "قصرِ الرايةِ"، وكانَ يعتبرُ المقرَّ الرئيسيَّ لسكنِ صدامَ حسينَ وعائلتهِ، ويعتبرُ الحيُّ منْ أقربِ أحياءِ بغدادَ إلَى مطارِ بغدادَ الدوليِّ .

▼ تَوْضِيحَاتٌ

الهجومُ الصليبيُّ برًّا وبحرًا وجوًّا شاركتْ فيهِ دولٌ عربيةٌ (الكويتُ، السعوديةُ، الأردنُّ، قطرُ، البحرينُ)؛ ممَّا سهَّلَ مهمةَ قواتِ التحالفِ

كانَ نائبُ صدامَ حسينَ نصرانيًّا، وكانَ الولاءُ لحزبِ البعثِ العربيِّ الاشتراكيِّ مثلَ كلِّ الحكوماتِ العربيةِ عندَ الأزماتِ تُعلنُ الشعاراتُ الدينيةُ، وصارتْ خطاباتُ صدامَ تستلهمُ كلماتِهَا منَ السنةِ والقرآنِ ليقنعَ الناسَ أنَّ كلَّ مَنْ قُتِلَ شهيدٌ .



لعدمِ وجودِ B52 كانَ التحالفُ الصليبيُّ يعانِي منْ تكاليفِ استخدامِ طائرةِ الـ مطارٍ خاصٍّ قريبٍ منَ العراقِ وقتَهَا -الآنَ تقلعُ منْ قطرَ بكلِّ حريةٍ-؛ لذلكَ كانتِ الطلعاتُ قليلةً وعنيفةً لإلقاءِ القنابلِ العنقوديةِ

كانتْ سوريَا تقفُ رسميًّا بجانبِ الجيشِ العراقيِّ وفتحتِ الحدودَ لكلِّ مَنْ أرادَ القتالَ، لكنْ لمْ تشاركْ بجيشِهَا.

الأردنُّ كانتْ تحصلُ على البترولِ العراقيِّ مجانًا قبلَ الحربِ، ورغمَ ذلكَ كانَ أكبرُ توغلٍ في العراقِ عبرَ الحدودِ الأردنيةِ .

أخبرَنِي كثيرٌ منَ الإخوةِ العراقيينَ أنَّهُ يندرُ أنْ يكونَ شابٌّ تجاوزَ الثامنةَ عشرةَ عامًا وهوَ لا يعرفُ الأسلحةَ، لذا يمكنُ أنْ نقولَ: معظمُ الشبابِ العراقِيّ جاهزٌ عسكريًّا للقتالِ

نسبةُ أهلِ السنةِ إلَى الشيعةِ في العراقِ كمَا يقولُ أهلُ الأنبارِ في ذلكَ الوقتِ كالاتِي:

بغدادُ: ٦٠٪ سنةٌ

البصرةُ: ٥٠٪ سنةٌ

الأنبارُ: ١٠٠٪ سنةٌ

كربلاءُ والنجفُ: ١٠٠٪ شيعةٌ

الأكرادُ يحسبونَ على أهلِ السنةِ، فَهِيَ قوميةٌ وليستْ معتقدًا. ولمْ يُستخدَمِ الطيرانُ الحربيُّ العراقيُّ في الحربِ.

[معالمُ السقوطِ]

وصلتِ الآلياتُ العسكريةُ حتى بُعدِ أمتارٍ منَّا وتوقفتْ عندَ تقاطعِ الجسْرِ معَ طريقِ الرضوانيةِ، توقفَ الجميعُ عنِ الحركةِ، ليسَ هناكَ سوى الصمتِ. ظنَّ العلوجُ أنَّنَا قُتلْنَا ولمْ يبحثُوا عنْ جثثِنَا، فهدفُهمْ كانَ أكبرَ منْ مجموعةٍ صغيرةٍ غالبًا يملكونَ خبرَهَا، بلْ كانَ هدفُهمْ مطارَ بغدادَ شمالًا، فتركُوا الجسرَ خلفَهمْ. انتظرْنَا حتى صارتِ الآلياتُ على بُعدٍ كافٍ منَّا، ثمَّ صعدْنَا متسللينَ معَ الجرحَى وعبرْنَا الجسرَ تجاهَ بغدادَ,

عندَ عبورِي الجسرَ لمحتُ عساكرَ منَ الجيشِ العراقِيّ خلفَ الأشجارِ وراءَ النهرِ، حدثتْنِي نفسِي أنْ أطلقَ النارَ عليهمْ؛ فالغدرةُ كانتْ واضحةً لا شكَّ فيهَا، لكنْ ترددتُ قليلًا ومضَى كلُّ واحدٍ منَّا في طريقٍ بصورةٍ عشوائيةٍ. بعضُنَا دخلَ وسطَ الأشجارِ، والبعضُ عادَ للجيشِ، وأنَا ومعِي أحدُ الشبابِ مضينَا على جانبِ الطريقِ المسفلتِ الرئيسيِّ. عندَهَا لمحتُ سيارةً نصفَ نقلٍ ملاكِيّ كانتْ قادمةً منْ وسطِ بغدادَ تجاهَ الجسرِ، ثمَّ أدركُ السائقُ ما يحدثُ فاستدارَ بسيارتِهِ بصورةٍ مغامرةٍ ليعودَ أدراجَهُ، فهرولتُ وقفزتُ داخلَ صندوقِ السيارةِ، وفعلَ ذلكَ مَنْ كانَ بقربِي، وسبحانَ اللهِ لمْ يهتمَّ السائقُ بنَا وأسرعَ هاربًا منَ المكانِ,

أحدُ الذينَ ركبُوا معِي أخذَ يصيحُ: "يَا عليُّ، يَا حسينُ!" فضربتُهُ بيدِي وقلتُ لهُ: "قُلْ يَا اللهُ!"، فصمتَ خوفًا.

دخلْنَا إلَى وسطِ بغدادَ ولا أحدَ يعلمُ عنِّي شيئًا، فلمْ نكنْ نرتدِي ملابسَ عسكريةً بسببِ رفضِنَا ارتداءَ زيِّ الجيشِ، كانتْ ملابسُنَا خاصةً بكلِّ فردٍ منَّا ولمْ نكنْ نخرجُ منَ المعسكراتِ، لكنَّ اليومَ أتجولُ في شوارعِ بغدادَ. كنتُ ومعِي الشابُّ العربيُّ نريدُ أنْ نعودَ للمعسكرِ؛ فقدْ تعبْنَا منَ التجوالِ ولا نعرفُ أحدًا ولا أينَ نذهبُ، والمروحياتُ في كلِّ مكانٍ، وانتشرَ الهلعُ والخوفُ وسطَ الناسِ منْ خبرِ دخولِ القواتِ الأمريكيةِ منطقةَ الرضوانيةِ .

اقتربتُ منْ سيارةِ شرطيِّ مرورٍ وطلبتُ منهُ أنْ يدلَّنِي على طريقِ المعسكرِ الذي كنتُ فيهِ، سألَنِي عنِ المنطقةِ قلتُ لهُ لا أعرفُ اسمَهَا. اجتمعُوا ثلاثةُ عساكرَ وتناجَوْا بينَهمْ ثمَّ جاءَ أحدهُمْ وقالَ لِي: "اركبْ هذهِ السيارةَ"، ركبْنَا والخوفُ منهمْ لا أكادُ أستطيعُ إخفاءَهُ.

كانتْ سيارةُ الشرطةِ تدورُ بنَا الشوارعَ وأَنَا أصفُ لهُ معالمَ المعسكرِ وبعضَ المناطقِ المحيطةِ بهِ. تعرفَ العسكريُّ على المكانِ لكنَّهُ تعمَّدَ أمرًا غريبًا! فقدْ أدارَ جهازَ تشغيلِ الأشرطةِ وارتفعَ صوتُ منشدٍ يقولُ: "عليٌّ عالٍ على أكبرَ"، وكلماتٌ منَ الشركِ تجعلُ عليًّا -رضيَ اللهُ عنهُ- إلهًا معَ اللهِ! تعالى اللهُ عمَّا يقولونَ! نظرتُ لصاحبِي وصمتْنَا كأنَّا لا نسمعُ شيئًا، دارَ بنَا بالسيارةِ أكثرَ منْ ساعةٍ ثمَّ أوصلَنَا المعسكرَ، حينَهَا تأكدتُ أنَّهُ أرادَ امتحانَنَا فيمَا سمعْنَا؛ لأنَّ المعسكرَ كانَ حقيقةً على بُعدِ ربعِ ساعةٍ فقطْ منْ مكانِ تحرُّكِنَا

دخلْنَا المعسكرَ وليسَ بهِ سوى عددٍ قليلٍ جدًّا منَ الشبابِ! أينَ البقيةُ؟! اجتمعَ الإخوةُ وكلٌّ يحكِي غدرةً، فهناكَ ستونَ شابًّا قُتلُوا غدرًا في شارعِ حيفَا قبلَ أنْ

يُواجهُوا العلوجَ بنيرانٍ مجهولةٍ منْ أسقفِ العماراتِ، نجَا أربعةُ شبابٍ وجاؤُوا بالخبرِ .

وجدتُ أحدَ العساكرِ في غرفةٍ يتحدثُ عنْ بطولتِهِمْ في منطقةِ الرضوانيةِ وأنَّهمْ دحرُوا العدوَّ، لكنَّهُ عندمَا رآنِي صمتَ وأقبلَ عليَّ وأخذَنِي خارجَ الغرفةِ قائلًا: "لَا تخبرْهمْ بمَا حدثَ، هكذا التعليماتُ"، كانَ تهديدًا واضحًا.

في تلكَ اللحظةِ انهارَ صاحبِي وأخذَ يتقيأُ، وفي خلالِ ساعةٍ ساءتْ حالتُهُ فتركُونَا نخرجُ للمستشفَى وكنتُ كمرافقٍ لهُ، وإلَّا فالخروجُ كانَ ممنوعًا .

عندَ دخولِي مستشفَى عدنانَ خيرِ اللهِ المطلَّ على نهرِ دجلةَ، وجدتُ المفاجأةَ عندَ بابِ المصعدِ , الأخُ السوريُّ الذي ذهبَ معَ صديقِي إلَى جسْرِ المثنَّى للاستطلاعِ

ليلةَ الغدرةِ! عندمَا وقعتْ عينِي بعينِهِ احتضنَنِي وأخذَ يبكِي بكاءً حارًّا ويقولُ لِي:

"صديقُكَ فلانٌ قُتِلَ، والتونسيُّ في عمليةٍ الآنَ إصابتُهُ كبيرةٌ.. غدرُوا بنَا! غدرُوا بنَا ".

[يومُ جرج بغدادَ]

إجتمعْنَا ستةً منَ الشبابِ المتطوعينَ في الطابقِ الثالثِ منَ المستشفَى نتشاورُ في أمرِنَا، ماذا نفعلُ وقدْ سقطَ مطارُ بغدادَ بيدِ العلوجِ، والمروحياتُ تدورُ حولَ المستشفَى وفوقَ سماءِ بغدادَ؟ .

خرجتُ معَ صاحبِي السوريِّ إلَى وسطِ بغدادَ نبحثُ عنْ سيارةِ أجرةٍ لنصلَ إلَى المعسكرِ ونحذرَ مَنْ بقِيَ منَ الشبابِ بأنَّ الغدرَ صارَ واقعًا ولا بدَّ أنْ نحميَ أنفسَنَا.

طلبَ سائقُ الأجرةِ مبلغًا كبيرًا، فالمكانُ الذي نريدُهُ صارَ مكانًا مرعبًا مليئًا

بالجثثِ، والحطامُ والظلامُ المخيفُ هوَ عنوانُ تلكَ المنطقةِ! ذهبْنَا إليهمْ فوجدْنَا الفوضَى، والمكانُ بهِ الشبابُ وحدَهمْ يقصونَ لنَا أعجبَ المواقفِ: تلكَ الأسلحةُ التي فرحْنَا بهَا يومَ الغدرةِ كانتْ منزوعةَ الإبرةِ -إبرةُ السلاحِ هِيَ التي تعملُ على إطلاقِ المقذوفِ- فكمْ منْ شابٍ قُتِلَ حينَ وقفَ يواجهُ دبابةً أوْ همرًا بسلاحٍ هوَ عبارةٌ عنْ حديدةٍ لا نفعَ فيهَا .

عدْنَا إلَى المستشفَى وبدأنَا نفكرُ في طريقةِ الخروجِ منْ بغدادَ فنحنُ لا نثقُ في أحدٍ حولَنَا، وعلمْنَا أنَّ الروافضَ ينتظرونَ سقوطَ بغدادَ؛ فثأرُهمْ معَ صدامَ والسنةِ قديمٌ منذُ إعدامِ صدامَ لأحدِ رموزِ الشيعةِ -والدِ مقتدَى الصدرِ- ومنعِ الاحتفالِ بعاشوراءَ والنياحةِ التي كانَ يفعلُهَا الروافضُ.. مواقفُ سأذكرُهَا للتاريخِ لنعلمَ مَنْ الذي خانَ .

الموقفُ الأولُ: داخلَ المستشفَى بدأَ بعضُ العراقيينَ السبَّ لنَا ومطالبتَنَا بالخروجِ منْ بلدِهمْ لأنَّنَا جئنَا نقاتلُ معَ صدامَ وندمرُ بلدَهمْ، فهمْ ينتظرونَ الجيشَ الأمريكيَّ لإنقاذِهمْ! فهمتُ منْ بعضِ الناسِ أنَّ هؤلاءِ شيعةٌ، فالعراقيونَ يعرفونَ مَنِ السنيُّ ومَنِ الشيعيُّ؛ لا أدري ربمَا بعلاماتٍ أوْ سحنةِ مناطقِهمْ وربمَا في لحنِ القولِ حينَ ينطقونَ.

الموقفُ الثاني: جاءَنَا أحدُ العراقيينَ داخلَ المستشفَى يحذرُنَا أنَّ الأمريكانَ يدفعونَ أموالًا بالدولارِ لِمَنْ يدلُّ على المتطوعينَ المندسينَ، وأنَّ ثمنَ كلِّ واحدٍ منَّا حسبَ جنسيتِهِ -أغلَى ثمنًا هوَ السعوديُّ- وأنَّ هناكَ عددًا تمَّ أسرُهمْ داخلَ إحدَى المستشفياتِ وذكَرَهَا لنَا، ثمَّ وصفَ لنَا طريقًا للخروجِ عبرَ نفقٍ داخلَ مستشفَى عدنانَ خيرِ اللهِ وخرجَ هوَ بعدَ ذلكَ بهِ، لكنْ نحنُ تخوفْنَا منهُ.

الموقفُ الثالثُ: كنتُ أنظرُ منَ الطابقِ الثالثَ عشرَ إلَى الجسرِ فوقَ النهرِ أمامَ المستشفَى فرأيتُ مشهدًا عجيبًا! الناسُ يذهبونَ فوقَ الجسرِ على أقدامِهِمْ لعبورِهِ، وهناكَ دبابتانِ على الطرفِ الآخرِ مقابلَ المستشفَى عندمَا يقتربُ أحدهُمْ منْهَا تطلقُ النارَ فيعودُ الناسُ أدراجَهمْ. عبرتْ عجوزٌ ومعَهَا بعضُ النساءِ ولكنَّ العلوجَ لا رحمةَ لديهمْ بأحدٍ، فأطلقُوا النارَ وسقطتِ العجوزُ وهربَ البقيةُ، حاولتْ سيارةٌ الذهابَ لإسعافِهَا فوقَ الجسرِ ولكنْ أطلقُوا النارَ على السيارةِ في مشهدٍ يتقطعُ لهُ القلبُ! لا نستطيعُ فعلَ شيءٍ، حتى أولئكَ الذينَ يرفعونَ ملابسَ بيضاءَ كعلامةِ استسلامٍ لا ترحمُهمُ الطلقاتُ. وأعجبُ ما رأيتُ الدبابةَ العراقيةَ في جانبِ المستشفَى لا أحدَ فيهَا منذُ جئنَا، ولمْ تطلقْ طلقةً أوْ يصعدْ فوقَهَا أحدٌ.

الموقفُ الرابعُ: اشتدَّ الوضعُ وصارتْ كلُّ العيونِ تنظرُ إلينَا وكأَنَّهَا تنتظرُ لحظةَ الانقضاضِ على الفريسةِ. اجتمعْنَا قربَ أحدِ العساكرِ العراقيينَ في غرفتنَا -العنبرِ- سألناهُ عنْ رأيِهِ في هذا الوضعِ لكنَّهُ أخذَ يبكِي ويقولُ: "قُطِعَتْ قدمِي وأَنَا لا أصدقُ أنَّ الحرسَ الجمهوريَّ خَدَعُوهُ وأنَّ كلَّ شيءٍ انتهَى! أينَ الطيرانُ؟ لا بدَّ أنَّ هناكَ خطةً؛ فالطائراتُ كلُّهَا تحتَ الأرضِ ستخرجُ وسينتصرُ صدامُ والأماجدُ!". الرجلُ كأَنَّهُ فقدَ عقلَهُ يهذِي ويبكِي غيرَ مصدقٍ أنَّ الأباتشِي هِيَ التي يسمعُ صوتَهَا حولَ المستشفَى تحلقُ بكلِّ حريةٍ .

الموقفُ الأخيرُ: نزلتُ ومعِي الإخوةُ التونسيونَ وكانوا ثلاثةً، وأخٌ مصريٌّ -الأخُ السوريُّ فارقَنَا لسهولةِ خروجِهِ- نبحثُ عنْ سيارةٍ نخرجُ بهَا منْ بغدادَ ونحنُ لا ندري أنَّ الأمريكانَ الآنَ في كلِّ مكانٍ ويقتربونَ منْ منطقتِنَا هذهِ بلَا مقاومةٍ.

وجدْنَا سيارةَ نقلِ ركابٍ صغيرةً توقفتْ قربَنَا وقالَ لنَا: "تريدونَ سيارةَ أجرةٍ؟"

قلتُ: "نعمْ". قالَ: "بمبلغٍ بسيطٍ، مئةِ دولارٍ، تخرجونَ بأمانٍ إلَى خارجِ بغدادَ".

فرحَ الإخوةُ وقالُوا: "موافقونَ". أخرجَ الكمساريُّ ورقةً بهَا عشراتُ الأسماءِ قالَ

لِي: "كلُّ هؤلاءِ أخرجنَاهمْ سالمينَ، فأسرعُوا وأحضرُوا أغراضَكمْ". توقفتِ

السيارةُ عندَ بابِ المستشفَى تنتظرُنَا .

كانَ قلبِي ينبضُ وهوَ يقولُ لِي: "هؤلاءِ خونةٌ"، وفِي آخرِ لحظةٍ وأَنَا ذاهبٌ لأجلبَ

أغراضَنَا لمحتُ لوحةَ السيارةِ: "كربلاءُ"! اشتدتْ ريبتِي وأسرعتُ للإخوةِ قائلًا:

"لَنْ نذهبَ معهُ"، وذكرتُ لهمْ أنَّهمْ غالبًا رافضةٌ وأنَّنَا سنُقَدَّمُ قربانًا. رفضَ الإخوةُ

قرارِي وخالفُونِي وذهبُوا وهمْ يقولونَ لِي: "لَا تتخلفْ عنَّا، ننتظرُكَ فِي السيارةِ" .

كانَ هناكَ سائقٌ مصابٌ يرقدُ في غرفةٍ بقربِنَا وهوَ منْ بلدي، ذهبتُ إليهِ مسرعًا أستشيرُهُ فذكرتُ لهُ ما حدثَ، فقالَ لِي: "لَا تذهبْ، فَمَنْ يقولُ لكَ الآنَ إنَّهُ يمكنُهُ أنْ يخرجَكَ منْ بغدادَ فهو كاذبٌ". وذكرَ لِي أنَّهُ سائقُ شاحنةٍ منْ سنواتٍ تزيدُ عنِ العشرةِ ويعرفُ بغدادَ جيدًا، وهوَ عندمَا أصابتْهُ العنقوديةُ بُتِرَتْ قدمُهُ كانَ يقودُ سيارتَهُ في وسطِ بغدادَ، والمدينةُ محاصرةٌ تمامًا الآنَ.

اتخذتُ قرارِي وتركتُ الإخوةَ وودعتُهمْ حينَ أصرُّوا على الذهابِ والدمعُ في عيونِنَا للفراقِ، وكلِّي يقينٌ أنَّهمْ لنْ يخرجُوا ولكنْ لا حيلةَ لِي، ورجعتُ أبحثُ عنْ مخرجٍ آخرَ.

[حيُّ السفاراتِ]

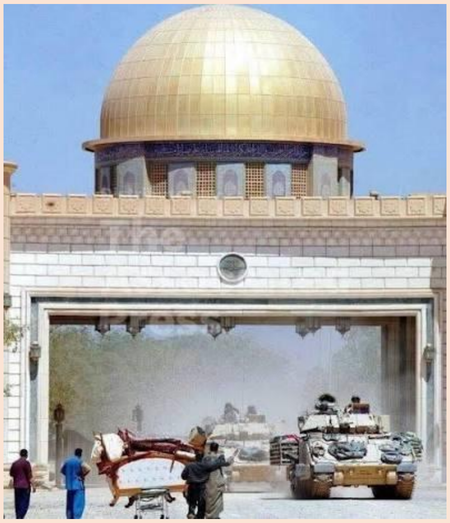
في صبيحةِ الثاني عشرَ منْ أبريلَ بدأتِ الآلياتُ العسكريةُ تجولُ في بعضِ شوارعِ بغدادَ، وكنتُ في حركةٍ مكوكيةٍ أبحثُ بينَ غرفِ المستشفَى عمَّنْ يساعدُنِي في الخروجِ سالمًا. لحظاتٌ عصيبةٌ وانطفأتْ رغبةُ القتالِ وصارَ الشكُّ في كلِّ مَنْ حولِي. أتذكرُ شريطَ حياتِي وأسألُ نفسِي: لماذَا يفعلُ هؤلاءِ كلَّ هذا ببلادِهمْ ونحنُ تركْنَا ديارَنَا حتى لا ينجِّسَ العلوجُ بلادَهمْ فيصبحُوا عبيدًا بعدَ عزةٍ؟! الحقيقةُ علمتُهَا لاحقًا، فأَنَا لمْ أكنْ أعلمُ عنِ العراقِ وصدامَ والبعثِ شيئًا، وكما يقولونَ:

"قَتَلَتْ أَرْضٌ جَاهِلَهَا" .

وجدتُ أحدَ المصابينَ منْ بلدي في إحدَى الغرفِ ومعهُ أهلُ زوجتِهِ العراقيةِ، دخلتُ عليهمْ بعدَ الاستئذانِ وحكيتُ للرجلِ كلَّ شيءٍ، وأَنِّي أريدُ الخروجَ قبلَ أنْ يبيعُونِي للأمريكانِ. كانَ رجلًا بمعنى الرجولةِ، فطلبَ منْ نسيبِهِ أنْ يأخذَنِي بسيارتِهِ إلَى حيِّ السفاراتِ، فهناكُ صديقٌ لهُ يعملُ حارسًا في سفارةٍ وعندهُ بدرومٌ يمكنُ أنْ أبقى هناكَ حتى أجدَ طريقًا آمنًا للخروجِ منْ بغدادَ .

كانَ القدرُ بلطفِهِ يمضِي بجانبِي رحمةً وشفقةً، سيارتُنَا تخرجُ في جانبِ الطريقِ، والهمراتُ وحاملاتُ الجنودِ تدخلُ في نفسِ الشارعِ منْ جانبِهِ الآخرِ، وأَنَا أنظرُ والحسرةُ تقطعُ قلبِي.. آهٍ يَا بغدادُ! باعُوكِ كمَا باعُونَا. مضينَا حتى دخلتُ على ذلكَ الغفيرِ الطيبِ واستقبلَنِي خيرَ استقبالٍ قائلًا : "لَا تحزنْ، ستكونُ بأمانٍ" .

في ليلةِ ذلكَ اليومِ والظلامُ يغطّي كلَّ شيءٍ، أسمعُ أزيزَ الدباباتِ فوقَنَا، تمشيطُ للطرقاتِ، وصوتُ القذائفِ المتقطعُ يدلُّ أنَّهُ ما زالتْ هناكَ مقاومةٌ. خرجتُ صباحًا منَ البدرومِ جائعًا ليسَ هناكَ طعامٌ، لمْ أجدْ سوى قطعةٍ صغيرةٍ بحجمِ ثلاثةِ أصابعَ منْ خبزةٍ متحجرةٍ، استأذنتُ الغفيرَ أنْ آكلَهَا فأذنَ لِي، وكأنَّهَا فطيرةٌ منْ أرقى المطاعمِ! الجوعُ أخرجَ الكثيرينَ في شوارعِ بغدادَ، أنظرُ إليهمْ في حيِّ السفاراتِ يكسرونَ أبوابَ المحلاتِ التجاريةِ لسرقةِ الموادِّ الغذائيةِ .



أشارَ إليَّ أحدهُمْ وهوَ يمرُّ بجانبِي: "يَا رجلُ هناكَ كلُّ شيءٍ، اذهبْ قبلَ أنْ ينفدَ"، وهوَ يشيرُ إلَى هايبرِ ماركتٍ مليءٍ بالبشرِ. أَبَتْ نفسِي أخذَ شيءٍ رغمَ الجوعِ الشديدِ، لأَنِّي لمْ أكنْ أعلمُ حكمَ الأكلِ منْ هذا الطعامِ، ثمَّ جعلَ اللهُ لِي رزقًا آخرَ، مرتْ بِي سيارةٌ يقودُهَا رجلٌ كبيرٌ في السنِّ، أوقفتُهُ وكانَ واضحًا أَنِّي غريبٌ ومقاتلٌ، فَهُمْ أصبحُوا يعرفونَ كيفَ يميزونَنَا عنْ غيرِنَا. قالَ لِي: "مِنْ أينَ يَا ابني؟". الحمدُ للهِ كانَ سنيًّا، وأخذْنَا في الحديثِ قليلًا فبكَى واشتدَّ بكاؤُهُ وهوَ يقولُ لِي: "هؤلاءِ ليسُوا منَّا، يسرقونَ كلَّ شيءٍ وقدْ ضاعتِ العراقُ". ثمَّ تبرعَ الرجلُ بأخذِي لسفارةِ بلادِي، فقلتُ لهُ: "نعمْ، خذْنِي فقدْ أجدُ مَنْ يفهمنِي ويساعدُنِي ".

وصلتُ السفارةَ فوجدتُ النساءَ والأطفالَ والرجالَ ينتظرونَ شيئًا، وعندَ دخولِي البوابةَ لا أحدَ ينظرُ إليَّ، فالجميعُ مشغولٌ بنفسِهِ كأَنِّي منْ أهلِ الدارِ. ليسَ هناكَ منَ الموظفينَ أحدٌ سوى بعضِ العساكرِ وضابطٍ بالسفارةِ لمْ يغادرُوا نخوةً حتى يُجْلُوا الرعايا المغتربينَ في بغدادَ بسلامٍ؛ كانوا تابعينَ لحزبِ البعثِ العربِيِّ الاشتراكِيِّ حزبيًّا ويشعرونَ أنَّهَا قضيتُهُمْ، وكانَ السفيرُ والموظفونُ قدْ غادرُوا بغدادَ منْ أولِ طلقةٍ كمَا ذكرَ لِي مَنْ كانَ في السفارةِ. سردتُ لهمْ قصةً منْ خيالِي فقلتُ لهمْ: "أَنَا طالبٌ في جامعةِ بغدادَ، وورقِي كلُّهُ احترقَ بصاروخٍ أصابَ سكنِي".

ضحكَ أحدهُمْ وقالَ لِي: "نحنُ نعرفُ كلَّ أحدٍ هنا ومَنْ يدرسُ، وأظنُّكَ مقاتلًا، لكنْ لا بأسَ ستخرجُ معَ الأُسَرِ ونزورُ لكَ جوازًا تخرجُ بهِ". أصابَنِي الارتياحُ وقتَهَا .

قلتُ لهُ: "عندِي شنطةٌ نسيتُهَا في مستشفَى عدنانَ خيرِ اللهِ"، فقالَ الضابطُ وهوَ يثقُ في نفسِهِ: "سآخذُكَ إلَى هناكَ لنأتيَ بهَا". أدركتُ أنَّ هذا الضابطَ لا يفهمُ منْ هؤلاءِ العلوجِ ومَا طبيعةُ المرحلةِ الآنَ! قلتُ في نفسِي لنذهبْ ما دامَ واثقًا منْ قولِهِ. خرجْنَا مباشرةً بسيارةِ السفارةِ ووضعَ الضابطُ سلاحَهُ بجانبِهِ وهوَ يقولُ لِي: "هذهِ سيارةٌ دبلوماسيةٌ لنْ يتعرضُوا لنَا " .

عندَ مدخلِ المستشفَى وجدْنَا ارتكازًا فيهِ عدةُ همراتٍ ودبابةٌ، أشارَ لنَا لنقفَ جانبًا. كنتُ خائفًا أنْ يعرفَنِي أحدُ العراقيينَ ولكنْ كانتِ الشنطةُ مهمةً جدًّا بهَا وصيةٌ منْ صديقِي لأهلِهِ . إقتربَ العلجُ منْ سيارتِنَا ولمحَ السلاحَ فانتفضَ للوراءِ وهوَ يصيحُ (اخرجو اخرجو من السيارة) ...

وإجتمعَ حولَنَا كلُّ العساكرِ وهمْ يصيحونَ بهستيريا خرجْنَا منَ السيارةِ ورفعْنَا الأيديَ، وحينَهَا أرادُوا تقييدَ الضابطِ فهاجَ وماجَ وهوَ يتفلتُ منْهمْ ويقولُ : "أَنَا ضابطٌ في الجيشِ السوداني أتبعُ السفارةَ، لنْ تقيدُونِي" قلتُ حينَهَا سيقتلونَهُ .

لكنْ سبحانَ اللهِ جاءَ عراقيٌّ كانَ وسطَهمْ وتحدثَ معهُ بالعربيِّ: "اهدأْ -هكذا قالَ لهُ- قبلَ قليلٍ ذهبَ عسكريٌّ أمريكيٌّ إلَى حماماتِ المستشفَى فطعنَهُ أحدهُمْ وهربَ، لذلكَ العساكرُ في حالةِ خوفٍ وشاهدُوا سلاحَكَ في السيارةِ.. نعتذرُ لكَ". خرجَ منِّي نفسٌ عميقٌ، مرتْ بسلامٍ وذهبْنَا وأخذْنَا الشنطةَ منْ داخلِ المستشفَى، حيثُ خبأتُهَا في سقفِ الغرفةِ .

[الوجوهُ القبيحةُ]

الفوضى هِيَ عنوانُ كلِّ معسكراتِ بغدادَ، لا قادةَ ولا جنودَ، والأبوابُ بلَا حراساتٍ، والمتطوعونَ العربُ بلَا رعايةٍ ولا سندٍ ولا سلاحٍ يكفِي لصدِّ الزحفِ الصليبيِّ في شوارعِ بغدادَ. تبخَّرَ الجيشُ العراقيُّ وظهرَ العملاءُ، وبدَتْ وجوهٌ كالحةٌ في الظهورِ في كلِّ مكانٍ تبحثُ عنَّا. في أحدِ الأحياءِ وقريبًا منْ شارعِ حيفَا كانَ أحدَ عشرَ شابًّا يتسللونَ خلفَ المباني المظلمةِ ويقومونَ بالكمائنِ السريعةِ رغمَ قلةِ العتادِ، ثمَّ يعودونَ إلَى مخبأٍ صغيرٍ عبارةٍ عنْ فرنٍ للخبزِ مهجورٍ. تنبَّهَ لهمْ أحدُ السكانِ العراقيينَ وذهبَ إليهمْ متوددًا بالطعامِ والشرابِ والمؤازرةِ اللفظيةِ: "أنتمْ وأنتمْ.." تشجيعًا وتأييدًا .

اطمأنَّ الشبابُ لهُ ولمْ يخافُوا أوْ يغيرُوا مكانَهمْ، لتكونَ في تلكَ الليلةِ نهايةُ بطولتِهمْ غدرًا منْ ذلكَ الرجلِ الشيعيِّ -علمتُ منْ جيرانِهِ أنَّهُ رافضيٌّ-؛ حيثُ أخبرَ عنْهمُ العلوجَ، فأصابتِ الفرنَ قذيفةُ دبابةٍ منتصفَ الليلِ ليتحطمَ كلُّ شيءٍ ويحترقَ المكانُ بمَنْ فيهِ. وقدْ جئتُ إلَى مكانِ الفرنِ لأشهدَ للتاريخِ أنَّهمْ صمدُوا وماتُوا بغدرِ الرافضةِ الذي فاحتْ رائحتُهُ في سماءِ بغدادَ .

بحثتُ في غرفِ ومكاتبِ السفارةِ عنْ أيِّ جوازٍ أستطيعُ تزويرَهُ بوضعِ صورتِي فيهِ -كانتِ الجوازاتُ في ذلكَ الوقتِ بدائيةً وسهلةَ التزويرِ- فلمْ أجدْ أيَّ ورقةٍ أستفيدُ منْهَا. جاءَنِي ذلكَ الضابطُ وقالَ لِي: "سنأخذُكَ إلَى السفارةِ اليمنيةِ، هناكَ موظفٌ في السفارةِ شجاعٌ جدًّا خالفَ أوامرَ حكومتِهِ بالانسحابِ خارجَ العراقِ وجلسَ وحدَهُ في السفارةِ، ولكنَّهُ فعلَ ذلكَ ليساعدَ الشبابَ المتطوعينَ". فبعدَ انتشارِ خبرِ

الغدرِ أصبحَ هذا اليمنيُّ يأخذُ سيارةَ السفارةِ يدورُ بهَا في الشوارعِ والأحياءِ يجمعُ الشبابَ الذينَ فقدُوا كلَّ شيءٍ حتى الطعامَ والشرابَ ويؤوِيهمْ داخلَ مبنى السفارةِ، ثمَّ يستخرجُ لهمْ ورقًا يمنيًّا كطلابٍ يمنيينَ ورعايا مدنيينَ، وبعدَ ذلكَ يستأجرُ لهمْ حافلةً سفريَّةً ليذهبَ بهمْ إلَى حدودِ سوريَا .

ويكررُ الأمرَ حتى كانَ ذهابِي إليهِ في تلكَ الليلةِ؛ ظلامٌ حالكٌ والمكانُ كأنَّهُ أحدُ أفلامِ الرعبِ. اقتربْنَا منْ بابِ السفارةِ اليمنيةِ والضابطُ الذي جاءَ بِي ينادِي بصوتٍ خافتٍ: "فلانُ.. فلانُ" يناديهِ باسمِهِ. خرجَ إلينَا ذلكَ الشابُّ الثلاثينيُّ وهوَ ينظرُ يمنةً ويسرةً ويقولُ لهُ: "ادخلْ سريعًا فربمَا تأتي الدباباتُ بعدَ قليلٍ مثلَ ليلةِ الأمسِ". أخذا يتبادلانِ الحديثَ فذكرَ رفيقِي قصتِي وأَنِّي أريدُ الخروجَ، فاعتذرَ لنَا وقالَ: "كلُّ ورقِ السفارةِ انتهى، والآنَ ما زالَ عشراتُ الشبابِ في الداخلِ لا

ندري ما يُفعلُ بهمْ". وكانَ آخرُ كلامِهِ: "سأبذلُ قصارَى جهدِي وبعدَهَا فليعدمْنِي عليٌّ عبدِ اللهِ صالحْ " .

بدأَ يومٌ جديدٌ في مأساةِ بغدادَ، عندَ الصباحِ خرجتُ أتجولُ معَ بعضِ المغتربينَ منْ بلدي في أحياءِ بغدادَ كأَنِّي مواطنٌ، فذهبْنَا إلَى البابِ الشرقِيِّ وقريبًا منَ المنطقةِ الخضراءِ، والشوارعُ تعجُّ بالعراقيينَ يحملونَ المسروقاتِ منْ قصورِ صدامَ ومقراتِ الوزاراتِ والمحلاتِ التجاريةِ. كنتُ طوالَ الوقتِ أنتظرُ فقطْ خبرًا واحدًا: أنَّ الحافلاتِ التي تتحركُ منْ أمامِ السفارةِ تحملُ العائلاتِ قدْ جاءتْ .

كانَ حزبُ البعثِ العربيُّ الاشتراكيُّ يقومُ بعمليةِ إجلاءٍ لأعضائِهِ عبرَ الحافلاتِ التي تحملُ عوائلَ المغتربينَ بحجةِ أنَّهمْ رعايا دولٍ لا علاقةَ لهَا بالحربِ، وكانَ

الصليبيونَ يسمحونَ بخروجِ العوائلِ ومَنْ معَهمْ على الحافلاتِ فقطْ بتنسيقٍ معَ سفاراتِهمْ؛ لذلكَ أكثرُ مَنْ خرجَ عبرَ سفارةِ بلادِي وسفارةِ اليمنِ وموريتانيَا فيمَا أعلمُ .



خرجتُ مودعًا بغدادَ بحزنٍ عميقٍ وفرحٍ مضطربٍ؛ فهذا شعورُ مَنْ ذاقَ لذةَ قتالِ عدوِّهِ ومرارةَ غدرِ شريكِهِ، لكنَّهَا الحياةُ المدرسةُ الكبيرةُ. ودَّعتُ بغدادَ بشوارعِهَا المحترقةِ والجثثِ المتحللةِ وحطامِ المباني، ولعناتُ الأرضِ تحيطُ بالرافضةِ والخونةِ؛ فإنَّ بغدادَ تعودتْ على مكرِ الروافضِ وسذاجةِ حكامِ بغدادَ.

[بينَ بغدادَ ودمشقَ]

كنتُ أنظرُ منْ خلالِ النافذةِ إلَى الأطلالِ، كلمَا مررتُ بمدينةٍ أسألُ مَنْ معِي في الحافلةِ عنْهَا؛ إنَّهَا العامريةُ، والفلوجةُ، والرماديُّ، والبغداديُّ، وحديثةُ، وهيتُ، والقائمُ.. هناكَ توقفْنَا. كانَ تجمعًا ضخمًا منْ كلِّ الجنسياتِ، آلافٌ ربمَا يفترشونَ الأرضَ في انتظارِ فتحِ المعبرِ الحدوديِّ بينَ القائمِ العراقيةِ والبوكمالِ السوريةِ؛ رجالٌ، ونساءٌ، وأطفالٌ. وكانَ معرفةُ المقاتلينَ منْ غيرِهمْ صعباً جدًّا. بعضُ الشبابِ يحاولُ عبورَ الحدودِ على الأقدامِ، فيتحركُ تجاهَ الشمالِ منَ المدينةِ، فالحدودُ هنَا عبارةٌ عنْ سلكٍ شائكٍ فقطْ بينَ الدولتينِ، ثمَّ كلمَا اتجهتَ شمالًا تزيدُ المسافةُ حيثُ تصبحُ هناكَ مسافةٌ فاصلةٌ تصلُ إلَى عمقِ ثلاثةِ كيلومتراتٍ بينَ السورِ العراقيِّ والسورِ السوريِّ؛ هذهِ مساحةٌ حرةٌ لا يوجدُ فيهَا حراسةٌ .

بعضُ الشبابِ نجحَ في العبورِ لكنَّهُ كانَ أمرًا شاقًّا. كنتُ أقولُ لِمَنْ حولِي إنَّنِي طالبٌ في جامعةِ بغدادَ، لكنْ معَ مرورِ عدةِ ساعاتٍ فهمتُ أنَّ هذهِ الأُسَرَ تنتظرُ مسؤولِي السفاراتِ منْ دمشقَ يأتونَ لإكمالِ إجراءاتِ دخولِهِمْ سوريَا؛ فالبعضُ ينتظرُ هنَا منذُ عدةِ أيامٍ لعبورِ الحدودِ. كانَ بعضُ العساكرِ السوريينَ يدورونَ بينَ الشبابِ يغرُونَهُمْ بتسهيلِ عبورِهمْ لِمَنْ كانَ متطوعًا في الحربِ، وذلكَ بتعليماتٍ منَ الرئيسِ: "المتطوعونَ أبطالٌ تحتاجُهمْ سوريَا".. هكذا يقولونَ للشبابِ. حينَهَا قررتُ معَ بعضِ الشبابِ -وكنَّا حوالي تسعةٍ- أنْ نخبرَهمْ الحقيقةَ ونعبرَ الحدودَ.

عندَ عبورِنَا كانَ الجميعُ يحيِّينَا كأبطالٍ، ثمَّ نمرُّ بطريقٍ ضيقٍ خارجَ المعبرِ الحدوديِّ وكانتِ المفاجأةُ: سيارةُ نقلِ جنودٍ وعساكرُ بسلاحِهِمْ وغدرةٌ جديدةٌ!

يصيحُ الجميعُ بصورةٍ تشعرُ فيهَا بنهايتِكَ: "اصعدْ سريعًا! اصعدْ سريعًا!". إنَّهَا حيلةٌ لمعرفةِ المقاتلينَ، امتلأتِ السيارةُ بالشبابِ وتحركتْ بنَا نحو_ المعتقلِ .

لمْ أستوعبْ ما حدثَ حتى وجدتُ نفسِي في سجنٍ خاصٍّ لا يوجدُ بهِ إلَّا المتطوعونَ في مدينةِ ديرِ الزورِ، وهناكُ قالُوا لنَا: "سنأخذُكمْ لفندقٍ ونكرمُكمْ بتعليماتِ الرئيسِ".. تناقضٌ بينَ الفعلِ والقولِ! دخلْنَا مدينةَ دمشقَ وكانَ حظُّنَا منْهَا سجنٌ تحتَ الأرضِ جمعَ فيهِ نظامُ بشارٍ كلَّ الجنسياتِ العربيةِ والأعجميةِ الذينَ قاتلُوا العلوجَ ثمَّ خرجُوا بعدَ الاحتلالِ؛ بهذهِ الخدعةِ يجمعونَ الشبابَ. لأولِ مرةٍ في حياتِي أدخلُ سجنًا، لكنَّهَا تجربةٌ غيرتْ نظرتِي للأمورِ تمامًا. نقلُونَا إلَى سجنِ "فرعِ فلسطينَ" -هكذا يسمُّونَهُ- مكانٌ موحشٌ. وهناكُ التقيتُ شابًّا باكستانيًّا كانَ معِي في أولِ الحربِ وفارقتُهُ يومَ فرَّقُونَا في فندقِ السديرِ ببغدادَ .

حكَى لِي كيفَ فعلُوا بِهِمْ وهوَ في قمةِ الحزنِ: "كنَّا دروعًا بشريةً جميعُنَا، حتى الشابَّ الفرنسيَّ وضعُوهُ في مبنى الكهرباءِ، وأَنَا نجانِي اللهُ حتى وصلتُ الحدودَ".. هكذا قالَ لِي. وجدتُ عددًا ممَّنْ كانَ معِي يومَ دخولِنَا بغدادَ ودارتْ بينَنَا القصصُ والرواياتُ. ثمَّ فجأةً بعدَ ساعتينِ فقطْ منْ دخولِي سجنَ فرعِ فلسطينَ، سمعتُ مَنْ يقولُ: "أينَ الـ...؟" -يقصدُنَا بجنسيتِنَا- فقلْنَا: "نحنُ هنَا". كانَ معِي أربعةُ شبابٍ منْ جنسيتِي أيضًا. بعدَ ذلكَ فهمتُ أنَّ كلَّ جنسيةٍ يتصلونَ بسفارتِهَا ليأتُوا ويأخذُوهُ، ثمَّ يتمُّ نقلُهُ إلَى بلدِهِ بالطريقةِ التي تختارُهَا سفاراتُهمْ .

وكانتْ سفارةُ بلادِي أسرعَ سفارةٍ في حضورِهَا، هكذا أخبرَنِي المعتقلونَ وأَنَا أودعُهمْ. تمَّ استلامُنَا وخروجُنَا بسيارةِ السفارةِ فالعددُ قليلٌ، لتبدأَ حلقةٌ جديدةٌ منْ رحلتِي في طريقِ الجهادِ.

سنعودُ بالحديثِ إلَى الوراءِ قليلًا لتوضيحِ بعضِ الخفايا إنْ شاءَ اللهُ.

[الهجرةُ]

طُرِقَ عليَّ بابُ الشقةِ، كانَ أخًا ناصحًا ذا همةٍ عاليةٍ أَبُو عبيدةَ المهاجرُ. جلسَ أمامِي يفترشُ الأرضَ وهوَ يذكرُنِي باللهِ، وأَنَّ المناديَ قدِ ارتفعَ نداؤُهُ فكيفَ لِي بعيشةِ الدونِ والهوانِ؟! مَا زالَ بِي حتى أجبتهُ رغبةً في الجنةِ وخوفًا منْ سؤالِ اللهِ عنْ نصرةِ الدينِ .

اتفقْنَا على موعدِ الهجرةِ، وبالتنسيقِ معَ أحدِ الإخوةِ العراقيينَ رتبْنَا كلَّ شيءٍ؛ إنَّهَا أولُ هجرةٍ لِي في سبيلِ اللهِ بعيدًا عنْ أنظارِ الحكوماتِ. بعدَ أنْ علمتُ أَنَّ كلَّ مَنْ لا يطبقُ شرعَ اللهِ ويوالي الكافرينَ لا يجوزُ لِي أنْ أقاتلَ معهُ -شرعًا وبالتجربةِ-

كادتْ تجربةُ بغدادَ أنْ تحطمَ قناعاتِي ورغبتِي، لكنَّ أملًا ساقَهُ اللهُ إليَّ بعدَ سماعِ أحداثِ "راوةَ" العراقيةِ، فعلمتُ أَنَّ هناكَ مَنْ سبقَنِي والطريقُ يطولُ.. هَلُمَّ عبدَ اللهِ إلَى جنةٍ عرضُهَا السماواتُ والأرضُ، وانفضْ غبارَ الذلِّ .

كانَ السفرُ هذهِ المرةَ تحفُّهُ المخاطرُ؛ فالأمنُ السوريُّ ينشرُ الجواسيسَ ويبذلُ جهدَهُ في محاربةِ هذهِ الهجراتِ، لكنَّ المهربَ رجلٌ يعرفُ كيفَ يعملُ . وصلْنَا الحدودَ معَ بزوغِ الفجرِ والثلجُ يغطِّي الأعشابَ، وكانتْ أسرةٌ صغيرةٌ وبسيطةٌ في معيشتِهَا تنتظرُ وصولَنَا؛ نحنُ ثلاثةُ مهاجرينَ غرباءَ في لحظاتٍ حاسمةٍ منْ حياتِنَا.. الانتقالُ منْ حياةِ الدعةِ والراحةِ لساحةِ الرجولةِ والعزةِ، انتقالٌ يخفقُ معهُ القلبُ ينتظرُ مَا تخفيهِ الساعاتُ القادمةُ .



تناولْنَا طعامًا دافئًا، وتحركتْ بنَا الدراجاتُ الناريةُ إلَى عمقِ "حصيبةَ". كانَ في استقبالِنَا أميرُ إحدَى المجموعاتِ الصغيرةِ والتي جئنَا إليهَا بتوصيةٍ منَ الأخِ العراقيِّ الذي ذكرتهُ سابقًا. خيرُونَا بينَ البقاءِ معَهمْ أوْ أَنْ نمضيَ إلَى الفلوجةِ، حيثُ يذهبُ غالبُ المهاجرينَ، فاخترْنَا الفلوجةَ .

أخبرُونِي في ذلكَ اليومِ أَنَّ مَنْ سيأخذُنَا إلَى الفلوجةِ بسيارتِهِ أخٌ مطلوبٌ للقواتِ المحتلةِ؛ فقدْ كانَ سبباً في هزيمةٍ كبيرةٍ لهمْ -قتلَ وحدَهُ أربعةَ جواسيسَ عملاءَ

للموسادِ- وغنمَ أسلحتَهمْ وأوراقَهمُ الثبوتيةَ؛ رأيتُهَا بنفسِي يومَ ذهبْنَا إليهِ. انتابَنِي خوفٌ لمْ أشعرْ بهِ منْ قبلُ، فقدْ كنتُ أنتظرُ تدريبًا وتأهيلًا قبلَ أَيِّ مواجهةٍ، لكنْ لمْ يكنْ هناكَ سبيلٌ سواهُ؛ لأنَّ المهاجرَ منْ هذا الطريقِ لا بدَّ أَنْ يمرَّ بمدينةِ "البغداديِّ" -تلِّ أبيبَ العراقيةِ كما يسمِّيهَا الإخوةُ- وهي مدينةٌ يتحركُ جيشُ الاحتلالِ فيهَا بكلِّ أمانٍ بسببِ تعاونِ أغلبِ أهلِهَا. لمْ تكنْ هذهِ أقلَّ مخاطرةً منْ أيامِ بغدادَ الماضيةِ، لكنْ توكلْنَا على اللهِ وقررْنَا الذهابَ .

[الفلوجةُ مدينةُ العزةِ]

تحركْنَا معَ بزوغِ الفجرِ منْ مدينةِ القائمِ وكنا خمسةً في سيارةِ صالونٍ عاديةٍ. تكلمَ معنَا الأخُ المسؤولُ عنِ الرحلةِ قائلًا: "لأنَّني مطلوبٌ فأَنَا دائمًا أحملُ معِي هذهِ القنبلةَ،

والسائقُ أيضًا يحملُ مثلَهَا، أمَّا أنتمْ فأكثرُوا الدعاءَ أنْ لا نحتاجَ لمواجهةٍ في الطريقِ".. كلماتٌ جعلتْنِي أعيشُ الواقعَ الجديدَ منذُ اللحظاتِ الأولى بكلِّ جديةٍ، وعلمتُ أنَّهُ طريقٌ لا يستأذنُكَ لتستعدَّ، بلْ منذُ أنْ فُصِلْتَ في سبيلِ اللهِ توقعْ أنَّ الرحلةَ قدْ تنتهي الآنَ، فإنْ لمْ تكنْ متوقعًا ذلكَ فلا تبدأْ حتى تكونَ جاهزًا لهذا الأمرِ. كلُّ هذهِ الخواطرِ دارتْ برأسِي سريعًا ثمَّ أقبلتُ على الدعاءِ .

عندمَا دخلْنَا على مدينةِ البغداديّ كانَ هناكَ مكانٌ منْ أصعبِ الأماكنِ التي رأيتُهَا في العراقِ؛ الجبلُ عنْ يمينِكَ والنهرُ عنْ شمالِكَ والطريقُ ضيقٌ جدًّا ولا بدَّ منَ العبورِ. وفجأةً بدَتْ لنَا الدبابةُ الأمريكيةُ الأولى في جانبِ الطريقِ، والجنودُ منتشرونَ في كلِّ مكانٍ، والممرُّ لا يتسعُ إلَّا لسيارةٍ واحدةٍ يتمُّ تفتيشُ الجميعِ؛

كلُّ سيارةٍ نتوقفُ ويبحثونَ داخلَهَا ويسألونَ كلَّ شخصٍ.. همراتٌ ودباباتانِ وجنودٌ وكأنَّهَا النهايةُ .

كانَ الأخُ المسؤولُ هادئًا حتى تعجبتُ منهُ وأَنَا أكتمُ أنفاسِي، فالموقفُ كانَ عصيباً على مثلِنَا نحنُ الثلاثةَ المهاجرينَ. عندمَا انتهى تفتيشُ السيارةِ التي أمامَنَا فجأةً رجعَ الجنديُّ للخلفِ ورفعَ آخرُ الحاجزَ وتغيرَ كلُّ شيءٍ؛ فقدِ انتهى وقتُ الارتكازِ وأشارُوا إلينَا بالمرورِ.. واللهِ لكأنِّي لا أصدقُ! لمْ يلتفتِ العسكريُّ على الأخِ، فقطْ إشاراتٌ للجميعِ بالمرورِ! مضينَا ونحنُ نسبحُ ونحمدُ ونهللُ حتى وصلْنَا إلَى مدينةِ العزةِ والكرامةِ الفلوجةِ، وكانَ أولُ مكانٍ ذهبْنَا إليهِ هوَ مسجدُ الشيخ الجنابيِّ، وهوَ بمثابةِ مركزِ المجاهدينَ في المدينةِ .

استقبلَنَا الشيخُ ومَنْ معهُ خيرَ استقبالٍ بحفاوةٍ وكرمٍ لا أصفُهُ حتى لا أبخَسَهُ حقَّهُ.

وقالَ الشيخُ لِمَنْ في المجلسِ: "مَنْ يأخذُ هؤلاءِ الشبابَ؟" فتنافسَ الرجالُ في ذلكَ، وكنّا منْ نصيبِ شيخِ أكبرِ عشيرةٍ هناكَ -أعتذرُ عنْ ذكرِ اسمِهَا ولكنَّ اللهَ يعلمُهُمْ .

كنتُ أذكرُ أحيانًا لأمِّي -رحمَهَا اللهُ- أنَّنِي بينَ هؤلاءِ القومِ كدتُ أنسَى أنَّنِي سودانيٌّ وأَنّي متزوجٌ، ونسيتُ معَهمْ أهلِي في كثيرٍ منَ الأوقاتِ ممَّا كنتُ أعيشُهُ منْ سعادةٍ وراحةٍ، وأصبحتْ حياتِي لها طعمٌ آخرُ. نخرجُ ليلًا لنصبِ الكمائنِ ونرجعُ بعدَ شروقِ الشمسِ فنكونُ معَ العلمِ الشرعيِّ ونبحثُ عنْ كلِّ ما يزيدُنَا معرفةً بعلومِ القتالِ .

كانتِ المدينةُ ما زالتْ تحتَ حكمِ الحكومةِ العميلةِ وحراسةِ المحتلِ؛ لذلكَ لا يخرجُ المهاجرُ إلَّا مقنعًا، والحربُ كرٌّ وفرٌّ، ورغمَ صعوبةِ الأمرِ لكنْ تجدُ روحَ الجماعةِ والبذلِ والعطاءِ منَ الصغيرِ والكبيرِ.

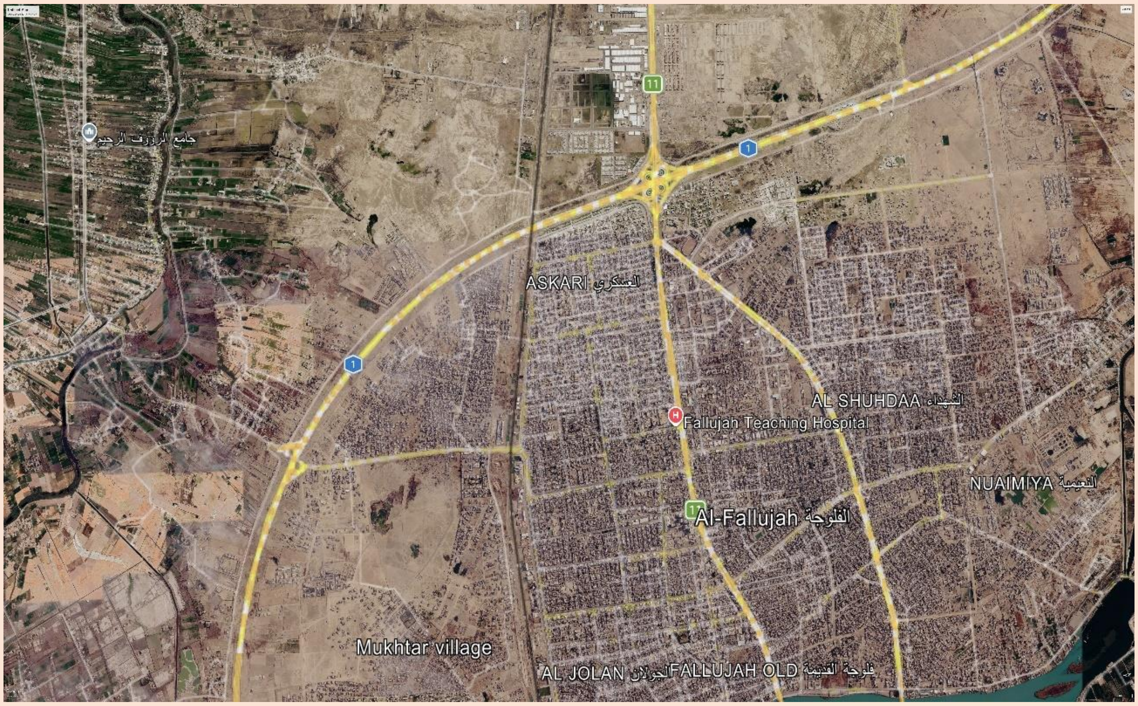
أخرجَ بعضُ المشايخ -جزاهمُ اللهُ خيرًا- فتوى مطبوعةً علقُوهَا على كلِّ الجدرانِ والأماكنِ في حكمِ مَنْ يتعاونُ معَ المحتلِ، أذكرُ منْهَا: "أنَّ كلَّ مَنْ ينقلُ لهمْ ترابًا أوْ يدلُّهمْ على طريقٍ فقدِ ارتدَّ عنِ الدينِ بالموالاةِ لهمْ على المسلمينَ". وذكرُوا كلامَ الشيخ أحمدَ شاكرٍ -رحمَهُ اللهُ- في حكمِ التعاونِ معَ الاحتلالِ في زمانِ الاستعمارِ الفرنسيِّ والبريطانيِّ. بعدَ هذهِ الفتوى وتعميمِهَا لمْ يعدْ لمتعاونٍ حجةٌ عندَ العوامِ.

استيقظْنَا باكرًا في أحدِ الأيامِ ووجدتُ الشبابَ في المقرِّ المخصصِ لنَا يتحدثونَ عنْ مقتلِ أحدِ السائقينَ لشاحنةٍ تحملُ ترابًا لمعسكرِ الأمريكانِ، لا يعلمُ الناسُ مَنْ قتلَهُ، فقطْ يقولونَ: ظهرتْ سيارةٌ خلفَ الشاحنةِ ثمَّ تخطتِ السائقَ وأطلقَ أحدهُمْ الرصاصَ على سائقِ الشاحنةِ؛ ممَّا أدَّى إلَى انقلابِ الشاحنةِ وموتِ السائقِ فورًا.

أخبرَنَا أحدُ الإخوةِ منَ الأنصارِ أنَّهُ يعلمُ مَنْ قتلَهُ؛ ابنُ أخيّهِ الأميرُ لإحدَى المجموعاتِ قالَ: "هوَ مَنْ يقتلُهُ حتى يعلمَ الإخوةُ أنَّنَا لا نجاملُ في دينِ اللهِ". كانَ هذا الحدثُ درسًا بليغًا لمثلِي لأنَّنَا تربينَا في مدرسةِ الإرجاءِ التي تسيطرُ على بلادِي، فكانَ اتباعُ القولِ بالعملِ أمرًا يحتاجُ مجاهدةً.

[ليلةٌ لا تُنسَى]

أخذَ الشيخُ أَبُو عليٍّ الأنصاريُّ في شرحِ الخطةِ : "سنخرجُ مساءً، وفي ذلكَ الحيِّ الهادئِ على الطريقِ السريعِ سيكونُ الكمينُ الذي قرْنَا عملَهُ الليلةَ لقواتِ الاحتلالِ.. السيارةُ جاهزةٌ" .



بعدَ شرحِ الخطةِ -وكانتْ أولَ مرةٍ في حياتِي سأشاركُ فيهَا إخوةَ التوحيدِ في عملٍ يحلمُ بهِ كلُّ مجاهدٍ- تعجبتُ في نفسِي كيفَ سنصلُ إلَى المكانِ بسيارةٍ واحدةٍ؟! وعندمَا جاءتْ ساعةُ الانطلاقِ، وقفتُ بينَ الأشجارِ في ذلكَ الظلامِ الشديدِ أنظرُ إلَى السماءِ وكأَنِّي أرى حركةً دؤوبةً؛ ملائكةً تنزلُ وأخرى تصعدُ تحملُ أرواحًا إلَى حيثُ شاءَ اللهُ .

سرَى خيالِي بروحي وكأَنِّي أصعدُ معَهمْ شهيدًا، لحظاتٌ لا أنسَاهَا تحولتُ فيهَا إلَى شيءٍ آخرَ، اشتقتُ فيهَا للرعيلِ الأولِ منَ الصحابةِ حولَ رسولِ اللهِ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ- وظننتُهَا آخرَ ليلةٍ في حياتِي الدنيا. فجأةً أيقظَنِي منْ خيالاتِي التي ظننتُهَا واقعًا صوتُ الأميرِ يقولُ لِي: "أَبَا مصعبٍ.. هيَّا بنَا ".

تحركتْ سيارتُنَا بهَا الأسلحةُ، وتحركتْ قبلَنَا مجموعةٌ منَ الشبابِ بدراجاتٍ هوائيةٍ فقطْ، كانتِ المدينةُ تغطُّ في سباتٍ عميقٍ لا توجدُ حركةٌ لأحدٍ حتى وصلْنَا المكانَ المقصودَ وتمَّ توزيعُنَا في مواقعِنَا. سألتُ أميرَنَا: هلْ يمكنُ أنْ يخرجَ أحدُ السكانِ ويبلغَ عنَّا العلوجَ أوِ الشرطةَ العراقيةَ؟ أجابَنِي: "لَا، فالناسُ هنا إمَّا معكَ وإمَّا صامتٌ؛ لأنَّ جزاءَ الجاسوسِ إنْ تمَّ اكتشافُهُ معروفٌ" .

كانتِ المدينةُ تحتَ سيطرةِ الاحتلالِ لكنْ تُدارُ بواسطةِ عملاءَ عراقيينَ منْ أهلِ السنةِ، والشرطةُ العراقيةُ هِيَ المسؤولةُ عنْ حمايةِ جيشِ الاحتلالِ وإدارةِ الأمنِ، ولكنَّ العساكرَ العراقيينَ في الغالبِ لا يشاركونَ مباشرةً في القتالِ وحدَهمْ؛ كانَ ذلكَ قبلَ معركةِ الفلوجةِ الأولى. كانَ عملِي صغيرًا في ذلكَ اليومِ، وهوَ حمايةُ ظهرِ الإخوةِ في أحدِ الشوارعِ .

وحدثَ معِي موقفٌ لا أنسَاهُ أبدًا: كنتُ أعتقدُ ردةَ الذينَ ينتمونَ للشرطةِ العراقيةِ لأسبابٍ واضحةٍ في الشريعةِ، وأعظمُهَا أنَّهمْ يقاتلونَ كلَّ مَنْ يقاتلُ المحتلَ الصليبيَّ دفاعًا عنهُ، وهذا منَ الموالاةِ المكفرةِ، ناهيكَ عنْ أنَّهمْ جندٌ في حكومةٍ لا تحكمُ بشريعةِ اللهِ.

هذا كانَ حكمًا علمتهُ منَ الكتابِ والسنةِ بعدَ عودتِي منْ بغدادَ سابقًا، وكانَ مشايخُ الجهادِ لا يتوقفونَ عنِ الكتابةِ في توضيحِ عقيدةِ التوحيدِ لخطورةِ المعركةِ، لكنْ ما توقعتُ أَنِّي سأترددُ في تنزيلِ هذهِ الأحكامِ على أرضِ الواقعِ .

جاءتِ الشرطةُ العراقيةُ منَ الطريقِ الذي يجبُ عليَّ حمايةُ الإخوةِ فيهِ، وعندمَا رأيتُ الجنودَ صارعتْني نفسِي: كيفَ تقتلُ عراقيينَ سنةً؟! إنَّهمْ فعلُوا الكفرَ لأجلِ المالِ وليسَ حبًّا في المحتلِ، ربمَا يكونُ معذورًا و... و ...

لمْ يكنِ الموقفُ يتحملُ هذا الترددَ، لكنْ سبحانَ اللهِ الرحيمِ! ذهبتْ سيارةُ الشرطةِ دونَ أنْ ترانِي، ولوْ دخلُوا إلَى الشارعِ كانَ يجبُ وقتَهَا أنْ أوقفَ تقدمَهمْ لناحيةِ الكمينِ بحيلةٍ تمَّتْ بتوجيهاتِ القيادةِ بهَا، وإذا فشلتْ كانَ يجبُ أنْ أستخدمَ السلاحَ.

بعدَ مرورِ هذا الموقفِ بسلامٍ انتظرْنَا حتى بزوغِ الفجرِ ولمْ يأتِ الرتلُ، فعُدْنَا إلَى المقرِّ دونَ معركةٍ. علمتُ يومَهَا أنَّني أحتاجُ مزيدًا منَ العلمِ حتى تستقرَّ الأحكامُ في

قلبِي بيقينٍ تامّ ثمَّ أطبقُ ما علمتُ، فما تربيتُ عليهِ منَ الإرجاءِ والعلمانيةِ قبْلَهُ ما زالتْ آثارُهُ في نفسِي.

[صاروخُ - سامَ 7]

كانَ أَبُو طارقٍ شابًّا في مقتبلِ العمرِ منْ جزيرةِ العربِ، هاجرَ بمالِهِ ونفسِهِ. تعرَّفتُ إليهِ في مقرِّ المهاجرينَ، طيبَ النفسِ، ذا فكاهةٍ، يحبُّهُ الجميعُ. حكَى لِي قصتَهُ الغريبةَ، ومَا رأيتُ منهُ في عشرتِهِ كذبًا، بلْ أحسبُهُ على خيرٍ، فقدِ اشترَى منْ مالِهِ مضادًّا للطيرانِ يُعرَفُ بـ(سامَ 7)، فوفَّقَ اللهُ الراميَ بتدميرِ إحدَى الطائراتِ وعلى متنِهَا مائتَا (200) علجٍ، كانتْ حدثًا اهتزَّ لهُ العدوُّ، وفرحَ بهِ سكانُ المدينةِ، وشفَى اللهُ بهِ صدورَ المؤمنينَ.

لذلكَ أذكرُ قصتَهُ في صحراءِ الأنبارِ حيثُ قالَ لِي: "كنَّا في خيمةٍ نضعُ سلاحَنَا والهاونَ في خارجِ الخيمةِ ونتدربُ في الصحراءِ، ولا يتجاوزُ عديدُنَا خمسةَ أشخاصٍ. سمعْنَا صوتَ مروحيةٍ منْ بعيدٍ فدخلْنَا الخيمةَ وغطَّيْنَا الهاونَ حتى لا يتعرفَ عليهِ الطيرانُ، وأمرَنَا الأميرُ بعدَ ذلكَ بالصمتِ وعدمِ الحركةِ معَ استلامِ كلِّ واحدٍ منَّا لسلاحِهِ. كانتْ لحظاتٍ حُبِسَتْ فيهَا الأنفاسُ، والصوتُ يقتربُ، ثمَّ نسمعُ صوتَ إطلاقِ الرصاصِ علينَا، ولمْ أرَ سوى غبارٍ حولِي، وأغمضتُ عينيَّ فجأةً وكأنَّ شيئًا نزلَ بقلبِي سكينةً وهدوءًا، ثمَّ فجأةً وجدتُنِي أستيقظُ منَ النومِ وحولِي الإخوةُ، والخيمةُ ممزقةٌ، وجميعُنَا كانَ يغطُّ في نومٍ عميقٍ، والهاونَ مكانُهُ! كلُّ شيءٍ تحطمَ وتمزقَ ما عدا أجسادَنَا.. سبحانَ اللهِ! ما أصابنَا أيُّ شيءٍ ".

قالَ لِي: "كنَّا نتعجبُ وتعلو أصواتُنَا: لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ. كأنَّهُ حلمٌ، لمْ نتحدثْ معَ بعضِنَا منْ شدةِ الدهشةِ، وكلٌّ منَّا يشكرُ ربَّهُ بمَا فتحَ اللهُ بهِ عليهِ. علمْنَا أنَّهَا رعايةُ اللهِ فقطْ، وزيادةٌ لنَا في اليقينِ؛ فما لهذا الذي كانَ منْ تفسيرٍ سوى أنَّ اللهَ لا يعجزُهُ شيءٌ، ولوْ شاءَ ربُّكَ لانتصرَ منهمْ وحدَهُ، ولكنَّهُ يريدُ منَّا العملَ فقطْ ".

كانَ درسًا لهمْ ولِي وأَنَا في أولِ الطريقِ، والحمدُ للهِ الذي منَّ عليَّ فرأيتُ لاحقًا مَا زادَنِي يقينًا بصدقِ طريقي هذا إلَى اللهِ .

كانَ مقرُّنَا الذي نسكنُ فيهِ جزءًا منْ بيتِ أحدِ الإخوةِ الأنصارِ؛ صالةً كبيرةً مرفقًا بهَا حمامٌ، وتفتحُ أبوابُهَا على أرضٍ زراعيةٍ، فالمنطقةُ على بعدِ خطواتٍ منَ

النهرِ. كلُّ البيوتِ هنَا لقبيلةٍ واحدةٍ وهمْ على قلبِ رجلٍ واحدٍ. كانتْ زوجةُ الأخِ هِيَ مَنْ تجهزُ لنَا كلَّ شيءٍ: الطعامَ، والشايَ، وغسيلَ الملابسِ، والماءَ الدافئَ. كانتْ مثالًا للضيافةِ في أروعِ حللِهَا، وفوقَ هذا تتمَنَّى الشهادةَ كمَا يذكرُ لنَا زوجُهَا، فندعو لهَا بذلكَ .

في أحدِ الأيامِ حدثَ كمينٌ للجيشِ المحتلِ قربَ منطقتِنَا وعلى الطريقِ العامِّ، نتجَ عنهُ تدميرُ سبعِ سياراتٍ عسكريةٍ، كانَ عبارةً عنْ تشريكٍ فقطْ، وتفجرتِ العبواتُ لتدمرَ كلَّ هذا في لحظاتٍ. قامتِ القواتُ المحتلةُ بتمشيطِ المنطقةِ ودخولِ البيوتِ بيتًا بيتًا، لذلكَ أخذَنَا الأخُ إلَى غابةٍ منَ النخيلِ بهَا بعضُ المنازلِ التي لمْ يكتملْ بناؤُهَا لإخفائِنَا حتى ينتهيَ التفتيشُ، لأنَّ المواجهةَ في هذا المكانِ عسكريًّا خاطئةٌ، والصوابُ في ذلكَ الوقتِ التخفِّي، فحربُ المدنِ لهَا تكتيكاتُهَا.

بعدَ انسحابِ الجيشِ الصليبيِّ عدْنَا إلَى مقرِّنَا، وعادَ صاحبُنَا إلَى زوجتِهِ ليطمئنَ على هدوءِ النفوسِ، فرأتْ في ملابسِهِ أثرَ (جيرٍ)، فسألتْهُ: "مَا هذا؟". أخبرَهَا أنَّهُ أخذَنَا لمكانِ كذا وكذا، فقالتْ لهُ مستنكرةً علينَا جميعًا: "جاءَكُمُ العلوجُ بأنفسِهِمْ، فكيفَ تتركونَهُمْ دونَ أنْ يذوقُوا منْكُمُ الموتَ وتنسحبوا"؟ .

كانتْ -رحمَهَا اللهُ- لا تريدُ سوى أنْ نواجهَهُمْ ولوْ كانَ مَا كانَ، ولعلَّهَا صدقتِ اللهَ فصدقَهَا اللهُ؛ فقدْ قُتِلَتْ -نحسبُهَا شهيدةً- بانفجارِ بيتِهَا أثناءَ معركةِ الفلوجةِ الأولى. تقبلَهَا اللهُ وجزاهَا عنِ المهاجرينَ خيرَ الجزاءِ، فَمَنْ لنَا بمثلِهَا اليومَ؟ .

اختراق من الداخل

كانتْ حركةُ المهاجرينَ والأنصارِ بالليلِ في سريةٍ تامةٍ، ولا بدَّ منَ التلثمِ بسببِ

وجودِ الجواسيسِ وانتشارِ نقاطِ الشرطةِ العراقيةِ العميلةِ؛ حتى لا يتعرفَ أحدٌ علينَا أثناءَ العملِ. الإخوةُ الأنصارُ كانَ كثيرٌ منهمْ يمارسُ حياتَهُ بصورةٍ طبيعيةٍ أثناءَ النهارِ، فالمدينةُ يوجدُ شرقَهَا قاعدةٌ أمريكيةٌ، وكذلكَ في طريقِ الرماديِّ غربًا قاعدةٌ أخرى. والحكومةُ العراقيةُ كانتْ يدَ المحتلِ التي تتحركُ بأوامرِهِ، وأحيانًا تكونُ أشدَّ بطشًا منهُ؛ فهِيَ تحتَ سيطرةِ الروافضِ تمامًا .

أخبرَنِي أحدُ الإخوةِ العراقيينَ بأنَّهمْ كانوا يتعايشونَ معَ الشيعةِ حياةً طبيعيةً، فقطْ ينكرونَ في أنفسِهمْ خرافاتِ هؤلاءِ؛ مثلَ طقوسِ دفنِ الميتِ وتلقينِهِ أسماءَ آلِ البيتِ بعدَ دفنِهِ زعمًا أنَّهُ يُسألُ في قبرِهِ عنْ ذلكَ. لكنْ بعدَ الاحتلالِ تفاجأَ كثيرونَ بالوجهِ الحقيقيِّ للروافضِ؛ فمناطقُ الشيعةِ منَ البصرةِ حتى بغدادَ سلَّمتْ مَا لديهَا منْ مخازنِ السلاحِ الكيماويِّ وغيرِهِ، حتى الكلاشينكوفَ العاديَّ، كلُّ ذلكَ

بتعويضاتٍ ماليةٍ منَ الجيشِ المحتلِ، وكانوا الحليفَ القويَّ للمحتلِ، ثمَّ بدأتِ العمالةُ تنتشرُ وسطَ أهلِ السنةِ والتنافسِ منْ أجلِ المالِ بعدَ تجويعِ الشعبِ العراقيِّ بسببِ الحصارِ والحربِ .

ذهبتُ يوماً معَ أحدِ الأنصارِ إلَى بيتِهِ لنتحاورَ معَ أخيِّهِ الذي انضمَّ إلَى الشرطةِ العراقيةِ متأولًا أنَّهُ يخادعُهُ ليأخذَ المرتبَ فقطْ، ولكنَّهُ لا يشاركُ في القتالِ. كانَ شابًّا لمْ يبلغِ العشرينَ منْ عمرِهِ، أخذَ يحكِي لِي كيفَ أنَّهُ أتعبَ المدربَ الأمريكيَّ والمترجمَ العراقيَّ وهما يشرحانِ لهمْ طريقةَ تفكيكِ الألغامِ؛ ليظنَّا أنَّهُ لا يفهمُ، فيكونَ في دوريةٍ عاديةٍ وليسَ في مهامَّ خاصةٍ، وأنَّهُ أخذَ المالَ وفعلَ بهِ مَا يحبُّ و... و... كانَ حوارًا صعباً معهُ، فهو لمْ يكنْ يدركُ خطورةَ الأمرِ، ولكنْ بفضلِ اللهِ بعدَ عدةِ ساعاتٍ شرحَ اللهُ صدرَهُ لقبولِ الحقِّ ومعرفةِ الحكمِ الشرعيِّ في أمرِهِ

وخطورةِ ذلكَ على خاتمتِهِ، فقررَ العملَ معَ أخيّهِ والخروجَ منَ العملِ الشرطيِّ .

ربمَا ظنَّ البعضُ أنَّهُ منَ الأفضلِ استمرارُه ليكونَ عينًا للإخوةِ، لكنْ هناكَ شروطٌ فيمَنْ يخترقُ الإخوةُ بهِ جيشَ الاحتلالِ، وأهمُّ شرطٍ هوَ أنْ يكونَ صاحبَ عقيدةٍ وعلمٍ حتى لا يسقطَ في شبهةٍ أوْ ناقضٍ غيرَ مكرهٍ عليهِ، ولهُ خبرةٌ في الأمرِ المكلفِ بهِ .

- العمليةُ التي كانتْ سببًا مباشرًا لاندلاعِ معركةِ الفلوجةِ الأولى في أبريلَ 2004م - ربيع الأولِ 1425هـ- هِيَ كمينٌ محكمٌ نصبَهُ الإخوةُ في تقاطعٍ رئيسيٍّ في المدينةِ يؤدِّي إلَى طريقِ الرماديِّ؛ حيثُ قُتِلَ وسُحِلَ أربعةُ متعاقدينَ أمريكيينَ -يُقالُ إنَّهمْ موساد في المدينةِ. كانَ نجاحُ هذهِ العمليةِ يرجعُ بعدَ فضلِ اللهِ إلَى أخٍ يعملُ في عمقِ صفوفِ القواتِ داخلَ القاعدةِ الأمريكيةِ شرقَ المدينةِ؛ أرسلَ المعلوماتِ

الكافيةِ عنْ تحركِ الخبراءِ وخطّ سيرِهمْ وزمنِ تحركِهمْ، فقدْ كانوا يرتدونَ زيًّا مدنيًّا وسيارةً مدنيةً للتمويهِ في طريقِهمْ إلَى الرماديّ .

بعدَ نجاحِ الكمينِ وقتلِ العملاءِ قامَ المواطنونَ بسحلِ جثثِهمْ وحرقِهَا في الشوارعِ فرحًا وتعبيرًا عنْ بغضِهمْ للمحتلِ. كانوا منْ عوامِّ الناسِ، فعلُوا ذلكَ بعدَ انسحابِ الإخوةِ منَ الكمينِ تاركينَ الجثثَ على الطريقِ؛ ممَّا دفعَ القواتِ الأمريكيةَ لشنِّ هجومٍ واسعٍ هدفُهُ الانتقامُ منَ المجاهدينَ وسكانِ المدينةِ كلِّهَا، فالعمليةُ كانتْ فاجعةً لهمْ .



قُتِلَ الأخُ قبلَ أنْ ينسحبَ منَ القاعدةِ، فقدْ تمَّ اكتشافُ أمرِهِ قربَ بوابةِ القاعدةِ. فتقبلَهُ اللهُ شهيدًا .

[عودةٌ للوراءِ]

عندمَا غزتْ أمريكَا العراقَ كانَ هناكَ طائفتانِ منَ الشيعةِ تتنازعانِ زعامةَ الروافضِ: تيارٌ عربيٌّ وآخرُ فارسيٌّ -إيرانيٌّ-. يقودُ الأولَ مقتدَى الصدرِ العربيُّ، والثاني يقودُهُ السيستانيُّ ذو الأصولِ الإيرانيةِ، الذي خلَفَ الزعيمَ الشيعيَّ محمدَ باقرَ الحكيمَ -الذي تمَّ اغتيالُهُ بتفجيرٍ في النجفِ بعدَ أربعةِ (4) أشهرٍ منَ الاحتلالِ فقطْ- في زعامةِ الحوزةِ .

كانَ التيارُ الصدريُّ يدعو إلَى مقاومةِ الاحتلالِ -عبرَ جيشٍ أطلقَ عليهِ "جيشَ المهديِّ"- وأدَّى ذلكَ إلَى المواجهةِ بينهُ وبينَ الجيشِ الأمريكيِّ بعملائِهِ داخلَ مدينتي الصدرِ والنجفِ، وبعدَ الضغوطِ تحولَ إلَى السياسةِ معَ الخيارِ العسكريِّ أحيانًا. أمَّا تيارُ السيستانيِّ فكانَ متعاونًا معَ الاحتلالِ منْ بابِ السياسةِ والوصولِ إلَى الحكمِ، وكانَ صاحبَ الغالبيةِ الشعبيةِ معَ التأييدِ منْ إيرانَ .

كانَ صراعُ التياراتِ الشيعيةِ محصورًا في مناطقِ الشيعةِ، وهِيَ الجنوبُ العراقيُّ وبغدادُ ومَا حولَهَا، حيثُ كانَ الروافضُ يمثلونَ نسبةَ أربعينَ في المائةِ (40%) منْ سكانِ بغدادَ يومَ بدأَ الاحتلالُ هجومَهُ. ثمَّ تمَّ طردُ أهلِ السنةِ منَ البصرةِ وبغدادَ تحتَ تهديدِ القتلِ، وتمَّ التهجيرُ، وتحولتْ هذهِ المدنُ إلَى غالبيةٍ شيعيةٍ، واللهُ المستعانُ .

كانتْ عملياتُ المجاهدينَ قليلةً، وأحيانًا شبهَ معدومةٍ، في المدنِ جنوبَ بغدادَ - البصرةِ، والنجفِ، والكوفةِ، وكربلاءَ، والحلةِ، وغيرِهَا- فهذهِ المدنُ يمثلُ فيهَا نسبةُ الروافضِ مائةً في المائةِ (100%)، مَا عدا البصرةَ، وأَنَّهَا الآنَ صارتْ بهذهِ النسبةِ معَ التهجيرِ. فكانتْ عمليةُ اغتيالِ المرجعِ الشيعيِّ الأعلى محمدِ باقرَ الحكيمِ هزةً عظيمةً لعرشِ الروافضِ واختراقًا نوعيًّا منْ أصعبِ العملياتِ .

كانَ الشمالُ العراقيُّ تحتَ سيطرةِ الأكرادِ العراقيينَ الذينَ يبحثونَ عنِ الانفصالِ عنِ الدولةِ العراقيةِ؛ لذلكَ لمْ يدخلُوا في صراعٍ معَ المحتلِ، بلْ كانوا يجدونَ فيهِ منقذًا وخطوةً إلَى الأمامِ. رغمَ أَنَّ هؤلاءِ الساسةَ والعسكريينَ الأكرادَ علمانيونَ تمامًا، لكنَّهمْ لا يمثلونَ شعبَ الشمالِ كلَّهُ، فهناكَ أكرادٌ على منهجِ أهلِ السنةِ

والجماعةِ. وعاصمةُ هذهِ الأحزابِ الكرديةِ العلمانيةِ المهمةِ هِيَ أربيلُ، والتي يوجدُ بِهَا قواعدُ لليهودِ والأمريكيينَ منذُ بدايةِ الاحتلالِ وحتى الآنَ .

هذا هوَ العراقُ بصراعاتِهِ وبيئتِهِ المعقدةِ، وكانتْ عاصمتُهُ بغدادُ أكبرَ عاصمةٍ عربيةٍ. فلا يظنَّنَّ أحدٌ بأنَّ الاحتلالَ جمعَ الشعبَ كلَّهُ، فكانَ الجهادُ سهلًا في بلادِ الرافدينِ .

[معركةُ الفلوجةِ الأولى]

في ذلكَ الصباحِ بينما كنتُ جالسًا معَ شيخِ العشيرةِ أسألُهُ كيفَ بدأَ الجهادُ في مدينةِ الفلوجةِ، قالَ لِي: "أَنَا شخصيًّا لمْ أكنْ أفكرُ في القتالِ، ولكنْ في أحدِ الأيامِ خرجتُ قاصدًا المنطقةَ الصناعيةَ لإصلاحِ سيارتِي، وأَنَا في الطريقِ وجدتُ دبابةً

أمريكيةً واقفةً في إحدَى الطرقِ. فكرتُ كثيرًا فقلتُ: لِمَاذَا لا أُحْضِرُ (الآر بي جي) وأقومُ بتجربتِهِ في هذهِ الدبابةِ؟ فرجعتُ إلَى البيتِ وأخذتُ سلاحِي، ثمَّ عدتُ سريعًا وجلستُ في مكانٍ لا يرانِي فيهِ أحدٌ، ثمَّ أطلقتُ قذيفةَ (الآر بي جي) على الدبابةِ فأصابتْهَا، فصحتُ: اللهُ أكبرُ. رجعتُ دونَ أنْ يرانِي أحدٌ، وجلستُ يومِي أفكرُ وقلتُ: هكذا فقطْ؟! هكذا أصبتُهَا؟! فلِمَاذَا لا أفعلُ ذلكَ كلَّ يومٍ؟! ومنذُ ذلكَ اليومِ بدأتُ بتكوينِ مجموعاتٍ وبثِّ روحِ الجهادِ بينَ الشبابِ؛ فالأمرُ ليسَ صعبًا، بلْ هِيَ أسبابٌ والرامي هوَ اللهُ ".

كانَ شيخُ العشيرةِ هذا ينضحُ شبابًا، قريبَ الدمعةِ حينَ يُذكرُ النبيُّ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ-، قوَّامًا عابِدًا كريمًا، هكذا عاشرتُهُ. كنتُ أرى أشكالًا منَ الأسلحةِ لا معرفةَ لِي بأيٍّ منْهَا، فعلاقتِي بالأسلحةِ وقتَهَا كانتْ ضعيفةً. لمْ أتدربْ في بلادِي الخدمةَ

الإلزاميةَ، وتهربتُ منْ تلكَ التدريباتِ التي تُسَّمى (الدفاعَ الشعبيَّ) والتي كانتْ إلزاميةً في عهدِ حكمِ الحركةِ الإسلاميةِ في البلادِ. علمتُ وقتَهَا أهميةَ التدريبِ، فالمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلَى اللهِ منَ المؤمنِ الضعيفِ.

طلبتُ منْ أميرِي أنْ يقومَ أحدهُمْ بتدريبِي، لكنَّ الأمرَ كانَ صعبًا جدًّا وقتَهَا، فالمدينةُ تحتَ الاحتلالِ، والتحركاتُ كانتْ سريةً وعلى الخفاءِ، حتى كانتْ حادثةُ حرقِ عملاءِ (الموسادِ) في شوارعِ الفلوجةِ، واشتعلتِ الحربُ بكلِّ وجهِهَا القبيحِ. كانتِ المدينةُ مركزًا للمجاهدينَ رغمَ سيطرةِ الحكومةِ العراقيةِ العميلةِ عليْهَا إداريًّا، وتحركاتِ الجيشِ الأمريكيِّ فيهَا كلَّ حينٍ برفقةِ سياراتِ الشرطةِ. مقتلُ الخبراءِ الأربعةِ قادَ القواتِ الأمريكيةَ إلَى الحصارِ الشاملِ للمدينةِ؛ بهدفِ إخضاعِ المدينةِ التي كانتْ تمثلُ عقبةً رئيسيةً أمامَ سيطرةِ الاحتلالِ على الأنبارِ.

كانتْ بدايةُ التفاوضِ بهدفِ تسليمِ المسؤولينَ عنِ الحادثِ لتبييضِ وجهِ أمريكَا، لكنَّ المفاوضاتِ لمْ تنجحْ. حاصرَ الجيشُ الأمريكيُّ وحلفاؤُهُ المدينةَ بقواتٍ بلغتْ خمسةً وعشرينَ ألفًا (25,000) بكاملِ عتادِهَا وغطاءٍ جويٍّ منْ جميعِ أنواعِ الطيرانِ الحربيِّ: (الشينوكِ، والأباتشي، وأف 16، والاستطلاعِ). في الخامسِ (5) منْ أبريلَ 2004م -الخامس عشرَ (15) منْ صفرَ 1425هـ- بدأَ الهجومُ الأمريكيُّ بقصفٍ مدفعيٍّ وجويٍّ واسعِ النطاقِ، وتوقعَ المهاجمونَ أنْ تكونَ السيطرةُ على المدينةِ سهلةً خلالَ ساعاتٍ أوْ أيامٍ. فُوجِئَتِ القواتُ الأمريكيةُ بمقاومةٍ عنيفةٍ وغيرِ متوقعةٍ، فتصريحاتُهُمْ كانتْ توحي بالحسمِ التامِّ.

بدأتْ حركةُ النزوحِ منَ المدينةِ والفزعُ بينَ العوامِّ على أشدِّهِ، وثبَّتَ اللهُ ثلةً منَ الموحدينَ لا تتجاوزُ الخمسةَ آلافٍ (5,000) فيمَا أعلمُ. وكانتِ المدينةُ لها

ارتباطاتٌ عشائريةٌ خارجَهَا؛ لذلكَ لمْ تكنْ تقاتلُ وحدَهَا، وكانَ الأنصارُ لبنةَ المجاهدينَ فيهَا، والمهاجرونَ كالوقودِ لنارِ الحربِ التي التهمتْ ثمانينَ (80) منْ قواتِ العدوّ فجأةً في المنطقةِ الصناعيةِ. اشتدَّ القتالُ ولمْ يكنْ للإخوةِ إلَّا الأسلحةُ الخفيفةُ والمتوسطةُ، حتى سلاحُ الدوشكَا كانَ سلاحًا غيرَ مناسبٍ لعدمِ امتلاكِ الإخوةِ للسياراتِ العسكريةِ؛ فالطيرانُ يجعلُ التحركاتِ بسياراتٍ عسكريةٍ علَيْهَا المضاداتُ أمرًا عسيرًا. كانتْ لديهمُ الهاوناتُ بأحجامٍ مختلفةٍ، وكانتْ لديهمُ الصواريخُ التي تمَّ تعديلُهَا مثلَ (اس بي جي 9) ومثلَ (سي 5 كي). كانتْ معاركَ غيرَ متوازنةٍ بحساباتِ الدنيا، ولكنْ كانَ نصرُ اللهِ. كانَ الإخوةُ في مدينةِ الفلوجةِ يقومونَ بتشغيلِ مكبراتِ الصوتِ في المساجدِ بالقرآنِ والأناشيدِ الجهاديةِ، وكانَ

ذلكَ يضايقُ القواتِ الأمريكيةَ؛ لذلكَ كانوا يستخدمونَ مكبراتِ الصوتِ وتشغيلَ الموسيقَى الغربيةِ حتى لا يسمعُوا القرآنَ .

استخدمتِ القواتُ الأمريكيةُ كلَّ مَا لديهَا منْ ترسانةٍ لقصفِ المدينةِ، ولكنْ كانتِ المفاجأةُ: كمينٌ محكمٌ وحصار ثلاثينَ (30) منْ قواتِ العدوِّ، مما جعلهم في عِداد الأسرى فلا مهرب من ذلك , ممَّا جعلَ العدوَّ يطلبُ الهدنةَ وتحتَ أَيِّ شروطٍ فقطْ مقابلَ سلامة العلوج المحاصرين ؛ فالشعبُ الأمريكيُّ يمارسُ على قيادتهِ ضغوطًا كبيرةً عندمَا تلوحُ في الأفقِ أَيُّ هزيمةٍ أوْ فقدٌ لأبنائِهمْ، فزعماؤُهمْ يبشرونَهمْ دائمًا بأنَّهمْ قوةٌ لا تُهزَمُ .

بعدَ سيلٍ منَ الدماءِ كانَ مهراً لهذا الفتح، جلسَ قائدُ القواتِ الأمريكيةِ المكلفُ معَ الوفدِ المفاوضِ عنِ المدينةِ وعلى رأسِهِ شيخانِ جليلانِ ليتمَّ إملاءُ الشروطِ التاليةِ :

*على القواتِ الأمريكيةِ الخروجُ منَ المدينةِ.

*دفعُ التعويضاتِ الماديةِ عنِ المنازلِ والمنشآتِ المدمرةِ .

*تكوينُ القواتِ الأمنيةِ في المدينةِ منْ أهلِهَا، وحكمُ المدينةِ منْ قِبَلِ المقاومةِ (المجاهدينَ) معَ دفعِ الحكومةِ المركزيةِ للمرتباتِ.

*فك حصار الجنود بسلام وتسليمهم .

*عدمُ مشاركةِ المقاومةِ (المجاهدينَ) منَ المدينةِ في أَيِّ عملياتٍ ضدَّ القواتِ الأمريكيةِ خارجَهَا.

تمَّ توثيقُ هذا الاتفاقِ بالصورةِ والصوتِ، لكنَّ ضعفَ إعلامِ المجاهدينَ وقتَهَا جعلَ هذا الأمرَ لا يأخذُ شهرتَهُ بينَ الناسِ. وكنتُ يومَ أشاهدُ هذا التسجيلَ أتذكرُ كيفَ كانَ يعيشُ النبيُّ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ- وصحابتُهُ، وعزةَ الإسلامِ

[المهاجرونَ والأنصارُ]

كانتْ دارُ السينمَا في الفلوجةِ مقراًّ للحزبِ الإسلاميِّ -جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ في العراقِ-. هذهِ السينمَا التي أحرقَهَا أهلُ الفلوجةِ احتجاجًا على وجودِهَا بينَهمْ، فقدْ كانتْ مدينةً بطابعٍ مجتمعٍ محافظٍ على دينِهِ في العمومياتِ، وذلكَ سمتُ المدينةِ التي

اشتهرتْ بكثرةِ المساجدِ. كانَ هذا الحزبُ لهُ مواقفُ متذبذبةٌ تجاهَ الاحتلالِ في أولِهِ، وظهرَ دورُهُ في مفاوضاتِ حربِ الفلوجةِ الأولى؛ حيثُ لمْ تكنْ توجدُ طريقةٌ لإيقافِ القتالِ بينَ الإخوةِ والجيشِ المحتلِ سوى وسيطٍ منْ داخلِ المدينةِ.

أسرعَ العدوُّ بطلبِ التفاوضِ عبرَ الوسيطِ يومَ تمَّ حصارُ عددٍ منَ العلوجِ حصارًا محكمًا في عمقِ المنطقةِ الصناعيةِ وصارُوا في حكمِ الأسرَى أوِ القتلى فلا نجاةَ؛ فإمَّا أنْ يتمَّ حرقُ الجميع بالسلاحِ النوعيِّ أوِ الحفاظُ عليهِمْ بالمفاوضاتِ. أخبرَنِي الأميرُ أنَّ مَنْ جاءَ بالتهدئةِ وفدٌ منَ الأعيانِ بعدَ التأكدِ منْ قبولِ وقفِ القتالِ أولًا عبرَ تواصلاتٍ معَ شورَى المجاهدينَ. تمَّ كلُّ شيءٍ بقيادةٍ حكيمةٍ رشيدةٍ نحسبُهَا، وتنفستِ المدينةُ نسائمَ العبوديةِ للهِ.

فُتِحَتِ الأسواقُ وعادتِ الحياةُ وجاءتِ التعويضاتُ، وانتشرتِ الحسبةُ في المدينةِ تدعو وتوجهُ وتساعدُ المحتاجَ، وبدأَ الإعدادُ الحقيقيُّ للمجاهدينَ منْ شتَّى بقاعِ الدنيا، وصارتِ الفلوجةُ قبلةَ المهاجرينَ .

كانَ المهاجرُ شخصًا عزيزًا بينَ أهلِ المدينةِ، فأَنَا أذكرُ تلكَ الأيامَ؛ كلَّمَا دخلتُ محلًّا أشتري شيئًا أسرعَ مَنْ حولِي بدفعِ المالِ وهوَ يشكرُنَا على ثباتِنَا. لمْ نكنْ نخشَى بعدَ اللهِ إلَّا المنافقينَ منْ أهلِ المدينةِ .

انتقلتُ إلَى سكنٍ جديدٍ قربَ مسجدِ الشيخِ عبدِ اللهِ الجنابيِّ، وفي تلكَ المضافةِ كانَ معِي تسعةُ إخوةٍ مهاجرينَ منْ مختلفِ بلادِ اللهِ: (فرنسَا، وإسبانيَا، ومصرَ، وسوريَا، وجزيرةِ العربِ، وغيرِهمْ). كانتْ حياتُنَا لا توصفُ منَ الراحةِ وجمالِ

الأخوةِ، بالليلِ رباطٌ وقيامٌ، وبالنهارِ تدريبٌ وعلمٌ. يزورُنَا المشايخُ على فتراتٍ في جولاتِهِمْ على المجموعاتِ، وبفضلِ اللهِ وجدتُ كلَّ مَا أتمناهُ، فقدْ عرفتُ حقيقةَ الإسلامِ بينَهمْ، وسأذكرُ موقفينِ كانَ لهُمَا أثرٌ في حياتِي وفكرِي:

جاءَنَا الشيخُ أَبُو محمدٍ الجزراويُّ، وهوَ عالمٌ منْ أرضِ الحجازِ فتحَ اللهُ عليهِ بالهجرةِ حتى بلغَ مدينةَ القائمِ دونَ أنْ يحلقَ لحيتَهُ وكانَ أمرًا نادرًا. جاءَنَا بعدَ أنْ مكثَ في القائمِ مدةً يدعو إلَى اللهِ في مساجدِهَا ويشاركُ في القتالِ ويحاربُ عبادَ القبورِ، حتى قامَ سكانُ منطقةِ حصيبةَ بهدمِ قبةٍ كانَ الناسُ يحضرونَ لهَا مرضاهمْ فكانَ فتحًا فوقَ فتحٍ، وانتشرَ النقابُ بينَ النساءِ وزادَ الإقبالُ على الانضمامِ في صفوفِ المجاهدينَ. هذا الشيخُ الجليلُ جاءَنَا زيارةً في المضافةِ، وبعدَ أنْ ضيَّفْنَاهُ قالَ لنَا والسرورُ يعلو وجهَهُ: "واللهِ اليومَ منْ أسعدِ أيامِ حياتِي، فقدْ زرتُ إخوانَكمُ في

الرباطِ على ثغرِ المنطقةِ الصناعيةِ بالمدينةِ وجلستُ على صخرةٍ جعلوهَا لِي مقعدًا، فمَا أطيبَهُ منْ مجلسٍ!". نعمْ، أعلمُ روعةَ شعورِهِ، فإنَّهُ شعورُ كلِّ مهاجرٍ في هذهِ الفلوجةِ الغراءِ.

الموقفُ الثاني كانَ لأحدِ الشبابِ منَ الأنصارِ. تقابلْنَا في أحدِ المقراتِ، وبينَمَا نحنُ في الحراسةِ حكَى لِي كيفَ جاءَ منْ أقصَى شمالِ غربِ العراقِ ليشهدَ معركةَ الفلوجةِ ولمْ يكنْ لديهِ مالٌ، وكيفَ كانتْ شدةُ الطريقِ، وأنَّهُ منْ قريةٍ أهلُهَا عملاءٌ للعلوجِ يحبونَ أنْ تدومَ لهمْ دنياهمْ فقطْ، وعندمَا لمْ يجدْ مَنْ يجاهدُ معهُ أوْ يدربُهُ ويساعدُهُ قررَ الهجرةَ إلَى الفلوجةِ ليقاتلَ ويشتدَّ عودُهُ ويعودَ لقريتِهِ بسلاحٍ ورجالٍ فيقودَ فيهَا الجهادَ.. همةُ الأسودِ ونفسٌ حرةٌ ترى الشهادةَ مغنمًا. للهِ درُّهُ! كانتْ

تبكيهِ آيةٌ عجيبةٌ حتى أشفقتُ عليهِ، فيقولُ لِي: "لا أملكُ نفسِي إنْ سمعتُهَا"، قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

[نقضُ العهودِ - حربُ الجواسيسِ]

بالتأكيدِ لمْ يلتزمِ الجيشُ المحتلُّ بالاتفاقِ، وكانتْ هناكَ خروقاتٌ لهذهِ التهدئةِ، وذلكَ عبرَ القصفِ الجويِّ لبعضِ المواقعِ باستخدامِ أقراصِ (الجي بي إس) التي يضعُهَا الجواسيسُ في مقراتِ المجاهدينَ. وكانتْ هذهِ الشبكاتُ الجاسوسيةُ منَ العراقيينَ أنفسِهِمْ؛ حيثُ يتمُّ تجنيدُ بعضِهِمْ للعملِ في هذهِ المهامِّ الخبيثةِ.

بعدَ أنِ استقرَّ الأمرُ للمجاهدينَ في المدينةِ بدأتْ مرحلةُ الإعدادِ، وأصبحتِ المدينةُ مركزًا حيويًّا يأوي إليهِ كلُّ مستضعفٍ وكلُّ مَنْ أرادَ الإعدادَ، وأصبحتِ

المعسكراتُ في كلِّ مكانٍ، لكنَّهَا لَمْ تكنْ في أماكنَ مفتوحةٍ. وتَمَّ تدريبُ معظمِ الإخوةِ الذينَ قامُوا بعملياتِ الذئابِ المنفردةِ هناكَ، وكانتْ حلقاتُ العلمِ في معظمِ المساجدِ.

في أحدِ الأيامِ جمعَنَا الشيخُ أَبُو ياسرٍ النجديُّ وأخبرَنَا أَنَّهُ يريدُ غزوةً هامةً وعلى الجميعِ التهيؤُ لذلكَ. كانَ لنَا مقرانِ مهمانِ؛ في أحدِهمَا بضعةٌ وعشرونَ أخًا، أمَّا الآخرُ فلمْ نتجاوزْ فيهِ العشرينَ. كانتِ المهمةُ موكلةً إلينَا في هذينِ المقرينِ، وبدأتْ ترتيباتُ العملِ.

في صبيحةِ اليومِ الذي قررْنَا فيهِ الخروجَ، وبينَمَا الإخوةُ في جلسةِ مذاكرةٍ للقرآنِ، حدثَ هجومٌ بالطيرانِ، ولمْ تستيقظِ المدينةُ إلَّا على أصواتِ الانفجاراتِ. ثلاثةُ

صواريخَ منْ طائرةِ (أف 16) على أحدِ المقرينِ ولمْ ينجُ أحدٌ، أمَّا المقرُ الذي نحنُ فيهِ فأخطأَ الصاروخُ الهدفَ ونزلَ بالقربِ منَ الحائطِ الخارجيِّ. إستنفرتِ المدينةُ وخرجَ الجميعُ نحوِ صوتِ الانفجاراتِ.

عندمَا وصلْنَا وجدنَا كلَّ شيءٍ مدمَّرًا والإخوةَ تحتَ الأنقاضِ. بدأتْ عمليةُ رفعِ الأنقاضِ لإخراجِ الإخوةِ، أمَّا الأمنيونَ فقامُوا بتطويقِ المنطقةِ للبحثِ عنِ الجاسوسِ؛ فإنَّ أسلوبَ الخونةِ أصبحَ معروفًا. يأتي الجاسوسُ ويرمي بالقرصِ الذي يلتقطُ الإحداثياتِ فيعطي إشارةً لغرفةِ تحكمِ الطائراتِ، ثمَّ تأتي الطائرةُ وتقصفُ باتجاهِ ذلكَ القرصِ، ثمَّ يُطلبُ منَ الجاسوسِ أنْ يأتيَ بالتقريرِ منَ الأرضِ لمعرفةِ مَنْ قُتِلَ وكمْ عددُهمْ وكلِّ التفاصيلِ. هذهِ المهمةُ قدْ تعرضُ الجاسوسَ للموتِ،

لكنَّ كلَّ جاسوسٍ يأملُ أنْ ينجو ويحصلَ على مبلغِ مائةِ (100) دولارٍ الذي

كانَ يخبرُنَا الجواسيسُ أنَّهمْ يقبضونَهُ مقابلَ عمالتِهمْ هذهِ.

لذلكَ قامَ الإخوةُ بتطويقِ المنطقةِ، وبفضلِ اللهِ سبحانَهُ تمَّ اعتقالُ الجاسوسِ،

وكانتِ امرأةً شيعيةً تعملُ في شبكةٍ قائدُهَا ضابطٌ في الشرطةِ العراقيةِ يسكنُ

الرماديَّ، يقودُ شبكةً منَ الجواسيسِ تعملُ في مدنِ الأنبارِ.

عندمَا تمَّ التحقيقُ معَ هذهِ المرأةِ قالتْ إنَّهَا بينَمَا كانتْ تدورُ بينَ بيوتِ الحيِّ تبحثُ

عنْ مقراتِ الإخوةِ علمتْ أنَّ هذا البيتَ فيهِ غرباءُ. فتحتِ البابَ وتفاجأتْ

بوجودِ أحدِ الشبابِ تحتَ سيارةٍ يصلحُ عطلًا فيهَا، فرفعَ رأسَهُ ورآهَا، ولكنَّهُ

أسرعَ بإنزالِ رأسِهِ عندمَا وجدَهَا امرأةً. قالتْ: "فأسرعتُ بإلقاءِ القرصِ على

أنقاضٍ كانتْ قربَ البابِ، وأسرعتُ بالخروجِ وإغلاقِ البابِ". بعدَ اعترافاتِهَا تمَّ تصفيتُهَا رميًا بالرصاصِ.

أمَّا الإخوةُ الشهداءُ -نحسبُهُمْ واللهُ حسيبُهُمْ- فقدْ علمْنَا أنَّهمْ كانوا في مجلسِ ذكرٍ حينَ رفعْنَا الأنقاضَ، وأخرجْنَا بعضَ الأجسادِ سالمةً وفي يدِ بعضِهِمْ ورقٌ منْ كتابِ اللهِ، وكانَ الجميعُ في مكانٍ واحدٍ. واجتمعَ الناسُ في المكانِ يكبرونَ وهمْ يحملونَهمْ؛ فوالذي رفعَ السماواتِ بغيرِ عمدٍ لقدْ فاحتْ منْ ورقِ المصحفِ الذي عليهِ دماؤُهمْ رائحةٌ مَا شممتُ مثلَهَا قطُّ روعةً وشذًى، حتى منعْنَا الجهلةَ الذينَ حاولوا التبركَ بهَا منَ الحصولِ على هذهِ الورقاتِ.

قدْ كانتْ غزوتُنَا التي تأجلتْ مقصدُهَا سجنَ "أَبِي غريبٍ" لفكِّ أسرِ إخوانِنَا وأخواتِنَا استجابةً لاستغاثةِ امرأةٍ مسلمةٍ ذاقتْ ويلاتِ العذابِ والاغتصابِ منَ الروافضِ والعلوجِ، فأقسمَ أميرُنَا أنْ لا يهدأَ لهُ بالٌ إلَّا بفكِّ أسرِهمْ وإنْ هلكْنَا جميعًا. فكانتْ حكمةُ اللهِ مَا كانَ؛ ليهلكَ مَنْ هلكَ عنْ بينةٍ ويحيى عنْ بيّنة .

من لنا بمثلهم

كنتُ أخرجُ إلَى الصلاةِ في مسجدِ الشيخ عبدِ اللهِ الجنابيِّ ، وفي يومٍ بينَمَا كنتُ ذاهبًا للصلاةِ مررتُ

بشابينِ منَ الأنصارِ، قالَ لِي أحدهُمَا: "أَلَا تذهبُ معَنَا؟" قلتُ لهُ: "إلَى أينَ؟"

فأسرعَ الآخرُ بالردِّ قائلًا : "هلْ تعرفُ طريقةَ استخدامِ صواريخ الكاتيوشَا؟"

فأجبتُهُ: "لَا". بعدَ حوارٍ سريعٍ وجدتُنِي أسيرُ معَهمْ بالسيارةِ في الطريقِ السريعِ، وفجأةً خرجَ الأخُ السائقُ منَ الطريقِ وسطَ المزارعِ في طريقٍ يبدو أنَّهُ يعلمُهُ جيّدًا. كنتُ حينَهَا جالسًا في صندوقِ السيارةِ الخلفيِّ .

صحتُ أريدُ تنبيهَهُ، فقدْ رأيتُ عندمَا نزلْنَا منَ الطريقِ منطادًا تابعًا للجيشِ الأمريكيِّ وسطَ الجبالِ عندَ قاعدةِ "عينِ الأسدِ" -قربَ الرماديِّ-. قالَ لِي الأخُ -وهوَ أميرُ العمليةِ-: "لَا تهتمَّ بهِمْ، سنمضي في إطلاقِ الصواريخِ". وفعلاً مضينَا، وخلالَ وقتٍ قصيرٍ كانَ رجوعُنَا بنفسِ الطريقِ، ورغمَ أنَّ صوتَ الإطلاقِ كانَ واضحًا، لكنْ لمْ يردَّ علينَا أحدٌ منَ اتجاهِ قاعدةِ العلوجِ. أخذَ الأخُ يشرحُ لِي طريقةَ هؤلاءِ المحتلينَ العلوجِ: "إذا أطلقتَ الصاروخَ تجاهَ أخيّهِ ولمْ يسألْهُ، فهو لا يسألُكَ.. هكذا يتعاملونَ " .

كانَ هذا الأخُ مبتورَ اليدِ اليمنى منَ المرفقِ، وذلكَ في زمانِ صدامِ حسينَ، والآنَ هوَ مطلوبٌ للعلوجِ. رغمَ طرفِهِ الصناعيِّ، تعجبتُ منْ جَلَدِ هؤلاءِ الأنصارِ.

ورأيتُ في أحدِ المهاجرينَ منْ جزيرةِ العربِ أمرًا آخرَ عجبًا؛ كانَ أَبُو الحورِ طالبَ علمٍ شرعيٍّ، يدعو إلَى اللهِ ويجاهدُ في سبيلِ اللهِ معًا. لهُ برنامجٌ معروفٌ بينَ الناسِ؛ حيثُ يقصدُ منازلَ الأنصارِ، يواسي في الشهداءِ والجرحى، ويحرضُ على الانضمامِ لركبِ الجهادِ. كانتْ كنيتُهُ أَبَا خديجةَ، لكنْ منْ كثرةِ مَنْ رآهُ في المنامِ وهوَ معَ الحورياتِ في الجنةِ صارتْ كنيتُهُ بينَنَا أَبَا الحورِ.

في إحدَى محاولاتِ الجيشِ الأمريكيِّ لاقتحامِ المدينةِ -ضاربًا بالاتفاقِ عرضَ الحائطِ- دارتْ معركةٌ شديدةٌ حتى إنَّنَا لا نجدُ راحةً إلَّا بضعَ ساعاتٍ خلالَ اليومِ

بالتبادلِ. وبينَمَا كانَ الشيخُ أَبُو ياسرٍ يقومُ بتوجيهِ الإخوةِ، تفلَّتَ منْ بينِ يديّهِ الشهيدُ -نحسبُهُ- أَبُو الحورِ وهوَ ينغمسُ في العدوِّ ويصيحُ: "الحورَ.. الحورَ.. واللهِ إنِّي أراهَا!". صاحَ أَبُو ياسرٍ ليوقفَ تقدمَهُ منفردًا، لكنْ كانتْ طلقةُ القناصِ في رأسِهِ وأخرى في الصدرِ، وفارقَ أَبُو الحورِ دنيانَا .

والذي نفسِي بيدِهِ، لقدْ حملتُهُ معَ إخوانِي بعدَ المعركةِ ودمُهُ مَا زالَ يتقطرُ، لمْ يتجلطْ ولمْ يبردْ جسدُهُ كالموتَى، فيا لهَا منْ ميتةٍ .

هذهِ نماذجُ ممَّنْ قامتْ على جماجمِهمْ دولةُ العراقِ الإسلاميةُ بعدَ سنواتٍ منَ الثباتِ .

كنتُ أرى في طرقاتِ المدينةِ وجوهًا جميلةَ المنظرِ تزينُهَا لحًى وثيابٌ بيضٌ، إذا اقتربتَ منْهَا تفوحُ رائحةُ العطرِ، وعلى محيَّاهَا الهدوءُ والوقارُ. فقلتُ يوماً وأَنَا أنظرُ إلَى أحدِهمْ: "مَا أجملَ سمتَ أهلِ السنةِ!". فردَّ عليَّ رفيقي: "هؤلاءِ المرجئةُ الذينَ لا يقاتلونَ ويقولونَ لنَا: اصبروا، فالقتالُ فيهِ الفتنةُ " .

كانتِ الفلوجةُ أرضَ الهجرةِ والإعدادِ والرباطِ. وأذكرُ الأخَ أَبَا البراءِ المكيَّ الذي خرجَ معَ اثني عشرَ (12) ليثًا مفخخًا في يومٍ واحدٍ، فاشتعلتْ بنارِهمْ بغدادُ وغيرُهَا. كانَ يقولُ لِي: "إنّي أحبُّكَ أخِي في اللهِ، ولكنْ مَا جئنَا هنَا لنلتقي، بلْ جئنَا لتأتيَ طلقةٌ منْ هاهنَا وتخرجَ منْ هاهنَا" وأشارَ إلَى رقبتِه .

للهِ درُّكمْ، ومَا أحلكَ الليلَ بعدَكمْ .

[الفلوجةُ محاولةٌ فاشلةٌ]

عاشتْ مدينةُ الفلوجةِ عدةَ أشهرٍ في أمانٍ وحريةٍ تُحكمُ بشرعِ اللهِ. كانَ ذلكَ بعدَ اتفاقِ أبريلَ 2004م -صفرَ 1425هـ- وحاولَ الجيشُ الأمريكيُّ المحتلُّ محاولاتٍ عديدةً لدخولِ المدينةِ، فكانَ يترصدُ أطرافَ المدينةِ للبحثِ عنْ ثغراتٍ. ظلَّ ذلكَ يحدثُ في كلِّ شهرٍ حتى كانتِ المعركةُ المشهورةُ في نوفمبرَ 2004م -رمضانَ 1425هـ- والتي شاركَ فيهَا البريطانيونَ والجيشُ العراقيُّ العميلُ الذي تمَّ تعيينُهُ منْ قِبَلِ المحتلينَ .

كانتْ أكبرُ محاولاتِ الجيشِ الأمريكيِّ لدخولِ المدينةِ في ذلكَ اليومِ، عندمَا حاولتْ سيارتانِ منْ نوعِ "همرَ" دخولَ أطرافِ المدينةِ منْ ناحيةِ المنطقةِ

الصناعيةِ، وخرجتَا سريعًا فلمْ تجدَا مقاومةً، كأنَّهمْ يبحثونَ عنْ ثغرةٍ. حدثَ لغطٌ شديدٌ في المنطقةِ وأسرعَ الناسُ بإثارةِ الإشاعاتِ.

في ذلكَ اليومِ حدثَ قصفٌ جويٌّ منْ طائرةِ (أف 16) على أحدِ المقراتِ. كانَ الإخوةُ ينامونَ حولَ الحديقةِ، وعندمَا استيقظُوا جلسُوا في أطرافِهَا، وجاءَ صاروخٌ وسقطَ في وسطِ الحديقةِ ولمْ ينفجرْ، واستقرَّ رأسُهُ في الطينِ. حدثتْ هزةٌ منِ اندفاعِ الصاروخِ وسقوطِهِ، ولمْ يحدثْ لأحدٍ في البيتِ شيءٌ. كانَ هذا سبباً في ذهابِنَا إلَى مقرٍّ جديدٍ وسطَ المدينةِ.

بعدَ سقوطِ الصاروخِ تجمعَ الناسُ قربَ البيتِ وعلمُوا أنَّ هناكَ مهاجرينَ في هذا البيتِ، وكنَّا نخشَى منْ مكرِ الجواسيسِ، فقررتُ الخروجَ منَ البيتِ والذهابَ إلَى

مقرِّ الأميرِ الشيخِ أَبِي ياسرٍ لإخبارِهِ بخطورةِ وجودِنَا في البيتِ، فقدْ كانتْ تعليماتُهُ عدمَ التحركِ منْ هذا البيتِ -كنتُ حينَهَا المسؤولَ عنِ البيتِ .

عندمَا وصلتُ المقرَ جاءتِ التعليماتُ بالاستعدادِ، فهناكَ معركةٌ على الأبوابِ.

تجمعتْ دباباتُ العدوِّ على أطرافِ المدينةِ، وعلمَ الإخوةُ أنَّ هناكَ محاولةً لاقتحامِ هذهِ المدينةِ، فتحركَ الجميعُ وبدأتْ مناوشاتٌ على أطرافِ الحيِّ العسكريِّ. تمَّ تقسيمُ الإخوةِ في حراسةِ المناطقِ والدفاعِ عنْهَا، فكانَ نصيبُنَا دفاعاتِ الحيِّ العسكريِّ.

كانَ الهجومُ محاولةً لدخولِ المدينةِ منَ الناحيةِ الشرقيةِ. عندمَا وصلْنَا إلَى مناطقِ الدفاعاتِ وجدنَا كلَّ شيءٍ مهيَّأً، كانَ الأمراءُ على استعدادٍ لهذا، فكانوا يدركونَ الواقعَ بصورةٍ جيدةٍ.

تمَّ إخلاءُ جميعِ مناطقِ التماسِ ومناطقِ القتالِ منَ السكانِ. الجميعُ ذهبَ إلَى وسطِ المدينةِ، وبدأتِ المساجدُ في رفعِ مكبراتِ الصوتِ بالقرآنِ، وكانَ شيئًا مهيبًا. تمَّ تقسيمُنَا إلَى مجموعتينِ: مجموعةٌ تقاتلُ وتستريحُ الأخرى في داخلِ المدينةِ، ويأتي التبديلُ فتذهبُ هذهِ وتعودُ تلكَ.

استمرَّ القتالُ ثلاثةَ أيامٍ متواصلةً، وكانَ نصيبُ كلِّ مجموعةٍ اثنتي عشرةَ (12) ساعةً، يتمَّ التبديلُ بينَهَا. استمرَّ القتالُ معَ توقفٍ في فتراتٍ متقطعةٍ. بدأَ الجيشُ

الأمريكيُّ في اليأسِ وأرسلَ كالمعتادِ رسلَ التفاوضِ، وجاؤوا يحملونَ التخديرَ مثلَ كلِّ مرةٍ. طلبُوا أنْ نتوقفَ منَ القتالِ للتفاوضِ، فتوقفَ كلُّ شيءٍ، وعمَّ الهدوءُ جميعَ المدينةِ حتى تمَّ التوقيعُ على اتفاقِ هدنةٍ جديدةٍ.



بينَمَا نحنُ نتفقدُ جرحانَا ونشاركُ المسلمينَ فرحةَ دحرِ العدوِّ، وكانَ الحرُّ شديدًا في ظهيرةِ يومِ الاتفاقِ هذا، فجأةً رأيتُ سيارةَ نقلٍ توقفتْ أمامَ مقرِّنَا، ونزلَ رجلٌ منَ العراقيينَ يكبرُ ويقولُ: "جزاكمُ اللهُ خيرًا، هذا آيس كريمٍ لتخفيفِ الحرِّ عنكمْ". كانَ الرجلُ يطوفُ بسيارتِهِ بينَ الإخوةِ، وهوَ صاحبُ محلٍّ مشهورٍ في

المدينةِ. ثمَّ تتابعتِ العطايا منَ التجارِ وأصحابِ المطاعمِ، حتى شبعْنَا دجاجًا في ذلكَ اليومِ.

ذلكَ اليومُ كانَ عسيرًا على البعضِ، فإنَّهَا ملحمةٌ اهتزتْ فيهَا بعضُ القلوبِ التي شاركتْ لأولِ مرةٍ. فهلْ تركَ أحدُهمُ الساحةَ وعادَ لبلادِهِ أمْ مَاذَا حدثَ؟ .

[الثباتُ أوِ الهاويةُ - نماذجُ للتدبرِ]

قبلَ المعركةِ الأخيرةِ بعدةِ أيامٍ كانَ هناكَ اجتماعٌ لقادةِ بعضِ المجموعاتِ في أحدِ المقراتِ الآمنةِ. كانَ المقرُّ محاطًا ببعضِ الإخوةِ كحراساتٍ، ولكنْ لا يبدو على المكانِ أَيُّ نشاطٍ. بدأَ توافدُ القادةِ إلَى المقرِّ، ومعَ كلِّ قائدٍ حرسٌ واحدٌ. وفجأةً سمعْنَا دويَّ الانفجارِ، وأسرعَ الجميعُ للبحثِ عنْ مكانِهِ؛ لمْ نكنْ نعلمُ عنِ الاجتماعِ

شيئًا، وصلْنَا كغيرِنَا فوجدْنَا أنَّ صاروخًا سقطَ على غرفةِ الحارسِ في ذلكَ المكانِ فقطْ، وقُتِلَ حارسُ المبْنَى وولَدُهُ -رحمهُمَا اللهُ .

لمْ يُصَبِ القادةُ، فهمْ كانوا في غرفةٍ أخرى، والمكانُ عبارةٌ عنْ غرفٍ متفرقةٍ داخلَ سورٍ كبيرٍ. كانَ أَبُو وليدٍ الجزراويُّ حرَسَ أميرِنَا، وعندمَا عادَ إلَى مقرِّنَا شعرْنَا أنَّهُ صارَ مضطربًا ويكثرُ الحديثَ عنِ الصاروخِ ويقولُ: "يا إخوةُ، ادعُوا لِي بالثباتِ"، ويقولُ لنَا: "يا إخوةُ، إنِّي رأيتُ الصاروخَ وهوَ ينزلُ على الغرفةِ، إنَّهُ أمرٌ رهيبٌ جدًّا.. سقطَ وأَنَا كنتُ أعلمُ أنَّ داخلَ الغرفةِ الرجلَ وابنَهُ، لمْ يصبْنِي شيءٌ، لكنِّي لا أستطيعُ أنْ أنسَى هذا المنظرَ.. يا إخوةُ، ادعُوا لِي بالثباتِ، أخافُ على نفسِي " .

كانَ عجبِي منهُ يومَ المعركةِ، حيثُ كنَّا في الحيِّ العسكريِّ ونتبادلُ إطلاقَ النارِ معَ العدوِّ. وبينَ الشوارعِ يخرجُ أحدُنَا ليرميَ بالقاذفِ (آر بي جي) أوِ البيكَا ويرجعَ في حركةٍ سريعةٍ يعرفُهَا كلُّ مقاتلٍ. وبينَ الشوارعِ إذا بدا رأسُكَ ربمَا لا يعودُ بسببِ القناصةِ العلوجِ؛ فهمْ يرمونَنَا منْ بُعْدِ ثلاثةِ (3) كيلومتراتٍ دونَ أنْ تراهمْ.

فجأةً أرى أخًا يركضُ مسرعًا أمامَنَا في الشارعِ على مرمَى القناصينَ وهوَ يحملُ بيكَا ويصيحُ: "إخوةُ.. إخوةُ.. أريدُ شريطَ بيكَا!". وتجاوزَنَا إلَى مكانِ الإمدادِ. مَنْ هذا الليثُ الذي كانَ في واجهةِ الطريقِ في مبْنًى لا يستُرُهُ منَ الدباباتِ إلَّا الطريقُ السريعُ؟! أدهشَنِي منظرُهُ وهوَ لا يبالي.. أَبَا وليدٍ! أأنتَ مَنْ كانَ يقولُ: "ادعُوا لِي بالثباتِ، أخافُ على نفسِي"؟! لعلَّ اللهَ أجابَ دعاءَهُ .

وعندمَا اشتدَّ القتالُ أصابتْ قذيفةُ دبابةٍ المبْنَى الذي كنَّا نحتمي بهِ أَنَا وثلاثةٌ منَ الإخوةِ، أصابتِ الطابقَ العلويَّ واهتزَّ المكانُ. كنَّا في ساترٍ جيدٍ قربَ السورِ، ولكنِ انهارَ الأخُ المهاجرُ الذي كانَ بقربِي، وأخذتُ أطمئنُه أنَّهُمْ إنْ رمَوُا المبْنَى مرةً أخرى فهذا رميٌ عشوائيٌّ، هكذا همْ.. لمْ يهدأْ. علمتُ لاحقًا أنَّهُ جاءَ قبلَ أيامٍ فقطْ، وأولَ مرةٍ في حياتِهِ يسمعُ مثلَ هذهِ الأصواتِ، ولمْ يكنْ يظنُّ أنَّهُ يدخلُ معركةً بهذهِ السرعةِ. بعدَ عدةِ أيامٍ اختفَى منْ مقرِّنَا، وسألتُ عنهُ فقالُوا لِي:

."ذهبَ في عملٍ"

بعدَ المعركةِ كنَّا نبتهجُ بهذا النصرِ في أحدِ البيوتِ، وكانَ في البيتِ سيارةٌ مملوءةٌ بالذخيرةِ والسلاحِ تحتَ مظلةٍ خرسانيةٍ حتى لا يراهَا الطيرانُ الحربيُّ. كنتُ والبعضُ في الطابقِ العلويِّ، بينما كانَ البقيةُ في الطابقِ السفليِّ، وفجأةً سمعْنَا دويَّ

انفجارٍ وتهشَّمَ الزجاجُ. قفزَ الإخوةُ، بعضُهمْ منَ الطابقِ العلويِّ إلَى الأرضِ، وأخذَ بعضُهمُ الساترَ، وصعدَ بعضُهمْ إلَى حوائطِ الجيرانِ. ظننَّا أنَّهُ هجومٌ بالطائرةِ؛ فهؤلاءِ عهودُهمْ كبيتِ العنكبوتِ، ولكنْ كانتِ المفاجأةُ أنَّهُ انفجارٌ داخلَ البيتِ.

فقدْ أخطأَ أحدُ القادةِ وهوَ يتحدثُ معَ آخرَ، وضغطَ على زرِّ رمي (الآر بي جي) وهوَ موجهٌ إلَى السقفِ الخرسانيِّ فوقَ السيارةِ العسكريةِ، فكانَ مَا كانَ، كانتِ الإصاباتُ أشدُّهَا على الأخِ القائدِ ومَنْ كانَ قربَهُ.

بعدَ علاجِ المصابينَ وبَّخَ الشيخُ أَبُو ياسرٍ ذلكَ القائدَ، وحدثَ بينَهُمَا حدةٌ في الكلامِ، وقدْ شاهدتُ ذلكَ لأولِ مرةٍ منْ أميرِنَا؛ فقدْ كانَ رجلاً ليِّنًا هيِّنًا، وعندَ الحسمِ تكادُ لا تعرفُهُ.

اختفَى ذلكَ القائدُ أيضًا بعدَ هذا الموقفِ بأيامٍ، وسمعتُ أَنَّهُ ذهبَ في مهمةٍ.

ولكنْ بعدَ شهرينِ تقريبًا، عندمَا ذهبتُ للعلاجِ في الشامِ منْ إصابةٍ، أخبرَني

الإخوةُ في مقرِّ المهاجرينَ أنَّ ذلكَ الشابَ الجزراويَّ والقائدَ اللذينِ اختفيَا قدْ سلَّمَا

نفسَيْهِمَا للحكومةِ السعوديةِ بعدَ أنْ أصدرتْ عفوًا ملكيًّا عنْ كلِّ سعوديٍّ يضعُ

السلاحَ ويعودُ إلَى "حضنِ الوطنِ" كمَا يقولونَ .

اللهم سلّم سلّم .



[عمرُ حديد - انسحابُ كوريا الجنوبيةِ]

عندمَا سمعَ الشيخُ عمرُ حديدٍ بأنَّ منسوبي حزبِ البعثِ قررُوا الخروجَ في مظاهراتٍ ضدَّ الاحتلالِ، اتفقَ معَ الشيخ عبدِ اللهِ الجنابيِّ على حشدِ عددٍ كبيرٍ منَ الإخوةِ والخروجِ في استعراضِ قوةٍ للمجاهدينَ في المدينةِ؛ ليعلمَ حزبُ البعثِ أنْ لا مكانَ لهُ بيننَا. تحركَ الجمعُ بعدَ صلاةِ العصرِ في يومٍ حارٍّ، لكنْ كانَ الحماسُ والعزةُ ينسيانَنَا التعبَ؛ فنحنُ جميعًا لا نريدُ أنْ ينسبَ الناسُ والإعلامُ حركاتِ المقاومةِ

والجهادِ في المدينةِ إلَى حزبٍ قوميٍّ علمانيٍّ، فيضيعَ جهدُنَا هباءً وتكونَ الثمرةُ لغيرِ شريعةِ اللهِ .

طفْنَا المدينةَ في موكبٍ مهيبٍ، ولمْ يجرؤْ أحدٌ منَ الحزبيينَ على الخروجِ. كنتُ لأولِ مرةٍ أخرجُ تحتَ إمرةِ الشيخ عمرَ حديد .

دخلتُ ومعِي أحدُ الإخوةِ على مقرٍّ لمجموعةٍ عراقيةٍ منَ الأنصارِ. كانوا في تنسيقٍ معَ مجموعتِنَا بتبادلِ المعلوماتِ والتدريبِ وكلِّ شيءٍ، وكانتْ مهمتُنَا يومَهَا الحصولَ على بعضِ العتادِ منهمْ؛ فإنَّ لديهمْ رجلاً مغامرًا في الأربعينَ منْ عمرِهِ يذهبُ إلَى معسكراتِ العدوِّ المحتلِّ بسيارتِهِ النقلِ كعاملِ إزالةِ أنقاضٍ، ومنْ داخلِ المعسكرِ يأخذُ القذائفَ التي لمْ تنفجرْ وكلَّ مَا فيهِ نفعٌ. كانَ مَا يحصلُ عليهِ سرًّا لا يعلمُهُ إلَّا

قليلٌ منَّا. ولاحقًا علمتُ أنَّ كثيرًا منَ المعسكراتِ التي تمَّ قصفُهَا منَ القواتِ المحتلةِ مَا زالَ فيهَا عبواتٌ وصواريخُ يمكنُ أنْ تستخدمَ في المفخخاتِ والألغامِ .

بينَمَا أَنَا معَ هذهِ المجموعةِ إذْ دخلَ علينَا رجلٌ كبيرٌ في السنِّ، سلَّمَ علينَا ثمَّ جلسَ. أخذَ يحدثُنَا، ومنْ ضمنِ حديثِهِ قالَ: "إنَّ عمرَ حديدٍ لا يحبُّ رسولَ اللهِ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ-". فُجِعْتُ منْ عباراتِهِ ولمْ أملِكْ نفسِي، فرددتُ عليهِ: "كيفَ يا شيخُ هذا الذي تقولُ؟! الرجلُ مجاهدٌ لهُ صولاتٌ وجولاتٌ". قالَ لِي وهوَ غاضبٌ : "عمرُ حديدٍ يمنعُ الصلاةَ على رسولِ اللهِ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ-، وبالقوةِ ".

بعدَ نقاشٍ -وأَنَا أحاولُ أنْ يكونَ نقاشًا هادئًا ودونَ فائدةٍ- حتى فهمتُ منهُ أخيرًا أنَّهمْ يقولونَ بعدَ الأذانِ بعضَ الكلماتِ ويصلونَ على النبيِّ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ-،

فعندمَا منعَهمْ بأنَّهَا بدعةٌ بدأَ هذا الرجلُ المسنُّ بزعمِهِ هذا. وبفضلِ اللهِ رضخَ هذا الرجلُ لدفاعِي وتوضيحِي، فهمْ يحترمونَ المهاجرينَ كثيرًا .

بدأتْ حملةُ اختطافِ واغتيالِ رعايا الدولِ المشاركةِ في التحالفِ معَ القواتِ الأمريكيةِ وكذلكَ الجنودِ الأمريكيينَ، وكانَ ثمرةُ ذلكَ انسحابَ القواتِ اليابانيةِ والقواتِ الكوريةِ الجنوبيةِ وإحدَى دولِ أمريكَا اللاتينيةِ، وانسحابَ كثيرٍ منَ الشركاتِ المتعاونةِ معَ الاحتلالِ، خاصةً التركيةَ. فقدْ كانَ الإخوةُ يخطفونَ جنودًا وموظفينَ في هذهِ الجيوشِ أوِ الشركاتِ، ويقومونَ بتصويرِ أحدِهمْ وهوَ يطلبُ منْ حكومتِهِ سحبَ قواتِهَا منَ التحالفِ أوِ الاستجابةَ لشروطٍ أخرى. كانَ لهذهِ الحملةِ أثرٌ بالغُ الأهميةِ على سيرِ المعاركِ.

في أحدِ الأيامِ اعترضتْ مجموعتُنَا ومعَهَا عددٌ منَ الفصائلِ الصغيرةِ قطارَ نقلٍ خاصًّا بالقواتِ المحتلةِ، وكانتِ الغنائمُ -للأسفِ- مفاجئةً للجميعِ: حفاضاتٍ لكبارِ السنِّ لقضاءِ الحاجةِ لشركةٍ أمريكيةٍ! منذُ ذلكَ اليومِ علمْنَا أنَّ الجنودَ يستعملونَهَا أثناءَ المعاركِ، فقدْ كانَ سابقًا يقضي أحدُهمْ حاجتَهُ في ملابسِهِ لحظةَ وقوعِهِ في الأسرِ، هكذا رآهُ كثيرٌ منْ سكانِ منطقةِ جسرِ الفلوجةِ في كمائنَ قبلَ تحريرِ المدينةِ .

[ورعُ المجلسِ - الشاعرُ المجاهدُ]

في الأيامِ الهادئةِ كانَ مسموحًا لنَا بالزياراتِ للمجموعاتِ الأخرى. كنتُ قريبًا منْ أحدِ الكوادرِ العراقيينَ منْ عشيرةِ "البوعيسى"، وكانَ شابًّا مبتكرًا. حينَمَا بدأتْ دوراتُ التدريبِ الخاصةُ في المجموعاتِ الكبيرةِ، علمتُ أنَّهُ يعملُ على تعديلِ

كانَ خبرًا سعيدًا بالنسبةِ لِي، فأسرعتُ إلَى .(SPG-9 - أس بي جي 9) قاذفِ أميرِنَا الشيخِ أَبِي ياسرٍ النجديّ أستأذنُه للالتحاقِ بتلكَ الورشةِ ومَا يعقبُهَا منْ عملٍ؛ فأَنَا قليلُ الخبرةِ، فكانَ لِي مَا تمنيتُ .

كانتِ الورشةُ في بيتِ رجلٍ منَ الأنصارِ أوقفَ بيتَهُ لهذا العملِ. بعدَ انضمامِي إلَى الورشةِ بدأتُ أتعرفُ على إنجازاتٍ أخرى، فاكتشفتُ أنَّ القذيفةَ المضادةَ للدروعِ هِيَ في الأصلِ صاروخُ جو-أرضٍ منْ مروحيةٍ عسكريةٍ، لكنَّ الإخوةَ (C-5K) قامُوا بتعديلاتٍ على طريقةِ الإطلاقِ لتصبحَ منْ أهمِّ أسلحتِنَا في المعاركِ. كانَ الأنصارُ شعلةً منَ الإبداعِ، وكثيرٌ منهمْ لمْ يكنْ متدينًا قبلَ الاحتلالِ، بلْ ربمَا كانَ بعثيًّا قوميًّا .

فِي صالونِ أحدِ تجارِ المدينةِ قابلتُ شاعرًا مشهورًا منْ شعراءِ صدامِ حسينَ. لمْ أكنْ أعرفُهُ، ولكنْ معَ السمرِ فِي تلكَ الليلةِ أخبرَنِي قصتَهُ معَ صدامَ وعنْ قصيدتِهِ التي كادتْ أنْ تذهبَ بحياتِهِ حينَ ألقاهَا فِي إحدَى المناسباتِ وصفقَ الناسُ والرئيسُ لهُ، ثمَّ أرسلَ صدامُ مَنْ يأتِي بهِ إليهِ. أخبرَنِي الشاعرُ أنَّهُ تلاعبَ فِي ألفاظِ القصيدةِ يريدُ ذمًّا ظاهرُهُ المدحُ، فقالَ لهُ صدامُ: "علمتُ مقصدَكَ ولنْ ينجيَكَ منِّي إلَّا أنْ تكتبَ لِي القرآنَ بدمِكَ". قالَ لِي: "بدأتُ بذلكَ، ولكنَّ اللهَ لمْ يتمَّ الأمرَ، وبعدَ أنْ جاءَ الاحتلالُ عرفتُ الحقَّ منْ قرابتِي الذينَ أزورُهمُ اليومَ ومنهمْ قادةٌ، فعزمتُ أنْ أجاهدَ بمالِي لأَنِّي كبرتُ فِي السنِّ". هكذا روى لِي قصتَهُ ولمْ ينكرْهَا أهلُهُ.

طرقَ أَبُو جعفرٍ الشاميُّ البابَ، وكنتُ أقربَ الإخوةِ إلَى البابِ. فتحتُ البابَ ولَمْ أكنْ أعرفُ هذا القائدَ. لفتَ نظرِي أنَّ يدَهُ بهَا ثلاثةُ أصابعَ فقطْ. سلَّمَ عليَّ وسألَ عنْ صاحبِ البيتِ وعرَّفَنِي بنفسِهِ؛ كانَ أميرَ التدريبِ على التفجيرِ في التنظيمِ. عندمَا علمتُ ذلكَ امتلأتْ نفسِي شغفًا بذلكَ، فقالَ لِي: "الدورةُ ستبدأُ قريبًا فلَا تفوِّتْهَا". وبدأتْ رحلةُ الإعدادِ تؤتي أُكُلَهَا يومًا بعدَ يومٍ .

في منطقةٍ (C-5K) لَمْ يكنْ تطويرُ الأسلحةِ أمرًا هينًا، ذهبْنَا لتجربةِ صاروخ مناسبةٍ، ولكنْ كانَ ردُّ فعلِ الإطلاقِ قويًّا نخلعَ كتفَ الأخ الذي قامَ بهذهِ المغامرةِ، ليعودَ الجميعُ إلَى العملِ منْ جديدٍ بنفسِ الهمةِ. وبعدَ فترةٍ قصيرةٍ صارتْ ورشةُ الأخِ مركزًا للتطويرِ.

استطاعَ بعضُ الإخوةِ صناعةَ قذيفةٍ تحملُ غازًا سامًّا للردِّ على قواتِ الاحتلالِ التي مَا زالتْ تحاولُ دخولَ المدينةِ بينَ فترةٍ وأخرى. كانَ الأمرُ يحتاجُ إلَى إذنِ مجلسِ الشورى، فهذا سلاحٌ نوعيٌّ جديدٌ. بعدَ شرح عملِ القذيفةِ والنتائجِ المتوقعةِ رفضَ أميرُ المجلسِ الفكرةَ، وكانَ سببُ الرفضِ أنَّ الرياحَ متقلبةٌ ومنطقةَ العدوِّ على مشارفِ المدينةِ، وبوجودِ احتمالِ إصابةِ بعضِ السكانِ في محيطِ المدينةِ فالأمرُ غيرُ جائزٍ. هكذا كانَ الردُّ، ولكنْ يمكنُ استخدامُهُ في هجومٍ على أَيِّ قاعدةٍ معزولةٍ عنِ المدنِ .

عندمَا تشرقُ الشمسُ كنتُ معتادًا على كوبِ الشايِ. وبينَمَا أَنَا وأحدُ الإخوةِ نتهيأُ لذلكَ طرقَ البابَ بعضُ الأنصارِ. دخلُوا علينَا وقمْنَا بواجبِ الضيافةِ. تعودتُ ومرافقِي أنْ نكونَ دائمًا في وضعِ الاستعدادِ، فالسلاحُ الشخصيُّ جاهزٌ لأَيِّ هجومٍ،

ومَا تعودْنَا الزياراتِ، لذلكَ كانَ المسدسُ على الأريكةِ حينَ انشغلتُ بإعدادِ الشايِّ .

كانَ بابُ الغرفةِ في مقابلِ بابِ الشارعِ في بيتِنَا، وكنتُ جالسًا في مواجهتِهِمَا، والإخوةُ على أريكةٍ وسريرٍ نحتسي الشايَّ جميعًا. وبينَمَا أَنَا أرفعُ يدِي بالكوبِ شعرتُ بكهرباءَ تضربُ يدِي، وسقطَ الكوبُ وذراعِي معًا، فصحتُ: "اللهُ أكبرُ!" معَ سماعِي لصوتِ الرصاصةِ. ظننْتُهُ هجومًا منْ ناحيةِ البابِ، ولكنْ وجدتُ الإخوةَ كلَّهمْ حولِي يحوقلونَ، وأحدهُمْ يصيحُ وهوَ يبكِي: "سامحْنِي.. سامحْنِي!".

فهمتُ أخيرًا، إنَّهَا طلقةٌ بالخطأِ منْ مسدسِي أرسلَهَا الأخُ وهوَ يتفحصُ السلاحَ فضولًا .

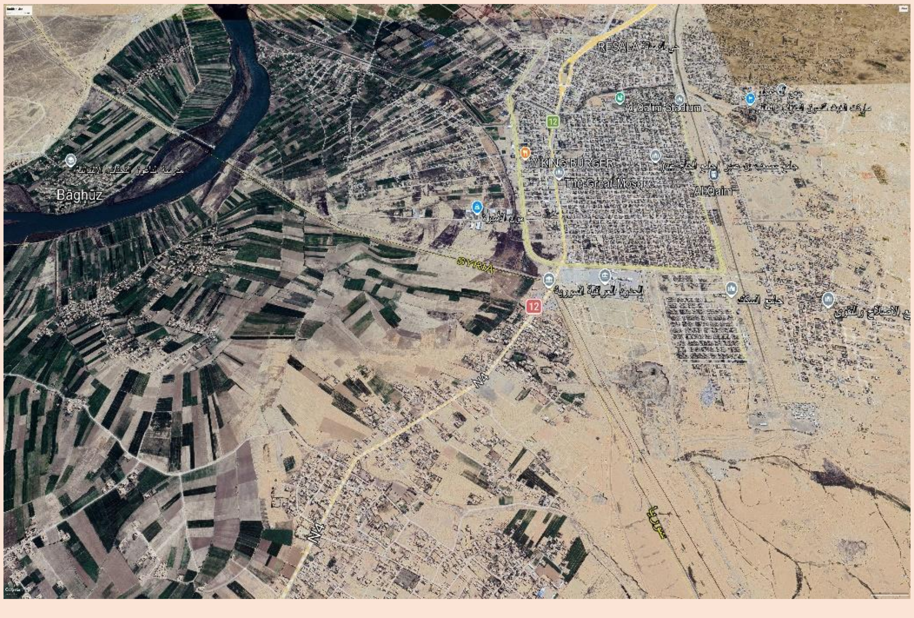
[الخروجُ والعودةُ - عصائبُ العراقِ القائمُ]

أصبحَ الجميعُ يخرجونَ كلَّ يومٍ إلَى الرباطِ، وأبْقَى أَنَا وبعضُ الجرحَى في البيتِ، ممَّا يضطرُّ بعضَ الإخوةِ إلَى حراستِنَا وقضاءِ حوائجِنَا. بعدَ أيامٍ منْ هذا الحالِ اقترحَ الأميرُ علينَا أنْ نخرجَ للعلاجِ، ولكنْ كانَ ترتيبُ الخروجِ أمرًا صعبًا، فتمَّ تكليفُ أحدِ الأنصارِ بتجهيزِ السفرِ. وبعدَ المشاوراتِ قررَ هذا الأخُ أنْ نخرجَ منْ مدينةِ الفلوجةِ عبرَ القطارِ إلَى مدينةِ القائمِ، ثمَّ التوجهِ إلَى حلبَ؛ حيثُ ننتظرُ هناكَ حتى يتمَّ الشفاءُ والعودةُ .

كنتُ أترددُ كثيرًا في أمرِ الخروجِ منْ مدينةِ الفلوجةِ، فربمَا تكونُ هناكَ معركةٌ؛ فالعدوُّ ليسَ لهُ عهدٌ، وكمْ حاولَ الدخولَ إلَى المدينةِ. علمتُ أنَّ علاجِي يحتاجُ إلَى

ثلاثةِ أشهرٍ حتى أعودَ إلَى العملِ. وكانَ يومُ الخروجِ يومًا حزينًا، فها أَنَا أودعُ مدينةَ الفلوجةِ بغيرِ عودةٍ .

كانَ السفرُ عبرَ القطارِ لا يتمُّ إلَّا بعلاقاتٍ؛ لأَنَّ هذا القطارَ تستخدمُهُ الحكومةُ وموظفو الحكومةِ، ولا تستطيعُ السفرَ بهِ وأنتَ مهاجرٌ. فليسَ هناكَ حراساتٌ أوْ سلاحٌ في القطارِ، ولكنْ بعدَ التخطيطِ جيّدًا سافرتُ ومعِي بعضُ الإخوةِ، وحفظَنَا اللهُ حتى وصلْنَا إلَى مدينةِ القائمِ, وكانَ في استقبالِنَا اثنانِ منَ الأنصارِ.



لمْ تكنْ مظاهرُ الاحتلالِ باديةً في شوارعِ المدينةِ، بلْ كانتْ حركةُ القواتِ الأمريكيةِ في مداخلِ المدينةِ فقطْ، وداخلَ القاعدةِ الأمريكيةِ في مصنعِ البصلِ شرقَ المدينةِ، والقواتُ الأكبرُ في القاعدةِ الجديدةِ في معبرِ القائمِ الحدوديِّ معَ البوكمالِ السوريةِ .

استقبلتْنِي جماعةُ "عصائبِ العراقِ" التي كانتْ في تنسيقٍ معَ بعضِ العشائرِ في الفلوجةِ، وكانَ الأخُ المهربُ الذي تكفلَ بخروجِنَا منْ تلكَ العشيرةِ. عندمَا وصلتُ إلَى مدينةِ القائمِ كانتْ "عصائبُ العراقِ" تقاتلُ قوميةً بتحالفِهَا معَ إحدَى الجماعاتِ العراقيةِ الوطنيةِ، وكانوا لا يقاتلونَ الشرطةَ ولا يقولونَ بردَّتِهَا؛ فمعظمُ أفرادِ الشرطةِ في المدينةِ منْ أبناءِ عشائرِ الأنبارِ، وكانوا يتأولونَ دخولَهمْ في

الشرطةِ بحجةِ أَنَّهمْ يحمونَ أهلَهمْ. ولكنْ لمْ تكنِ القواتُ الأمريكيةُ تتحركُ إلَّا بمصاحبةِ سياراتِ الشرطةِ، خاصةً أثناءَ عملياتِ الاقتحامِ لاعتقالِ المجاهدينَ .

قبلَ وصولِنَا بأيامٍ كانتْ هناكَ عمليةٌ كبيرةٌ قامتْ بهَا "عصائبُ العراقِ" أدتْ إلَى مقتلِ قائدِ القواتِ الكوريةِ في غربِ العراقِ. وقامَ بهذهِ العمليةِ مجموعةٌ خاصةٌ على رأسِهَا أَبُو البراءِ المكيُّ، وهوَ شابٌّ تدربَ على القيادةِ وعلى طرقِ تشريكِ المتفجراتِ. فقامَ بحيلةٍ جديدةٍ لمْ يعتدْ عليهَا العدوُّ، وكانَ ثمرةُ ذلكَ كميناً محكماً ومصرعَ جنرالٍ كبيرٍ في القواتِ الكوريةِ المتحالفةِ معَ المحتلينَ .

هذهِ العمليةُ جعلتْ "عصائبَ العراقِ" ترفضُ سفرَ أَبِي البراءِ المكيِّ إلَى مدينةِ الفلوجةِ، والتي كانَ ينوي الذهابَ إليهَا، ومَا كانَ بقاؤُهُ في القائمِ إلَّا لانتظارِ التنسيقِ؛ فكتبَ اللهُ لهُ هذا النجاحَ في اغتيالِ هذا الجنرالِ الكوريِّ .

خرجتُ منَ القائمِ إلَى الشامِ، إلَى مدينةِ حلبَ عبرَ التهريبِ، وهناكَ تعرفتُ على بعضِ الإخوةِ، ثمَّ تمَّ التنسيقُ للعلاجِ الذي أخذَ منِّي ثلاثةَ أشهرٍ في الانتظارِ .

كانتِ القائمُ مدينةً جميلةً يشقُّهَا النهرُ إلَى قسمينِ، يُسمَّى القسمُ الشماليُّ "حصيبةَ " .

عندمَا بدأتْ معركةُ الفلوجةِ الثانيةِ في نوفمبرَ 2004م -رمضانَ 1425هـ- كنتُ مَا أزالُ أنتظرُ الشفاءَ. حاولتُ ومعِي العشراتُ منِ الإخوةِ الدخولَ إلَى العراقِ، لكنَّ

الشيخَ أَبَا مصعبٍ -الذي أصبحَ أميرًا للتنظيمِ- أرسلَ رسالةً يطلبُ منَّا الانتظارَ،

فالمعركةُ صارتْ إبادةً بالسلاحِ الكيميائِيّ. هكذا بقيتُ في



دمشقَ أتعلمُ منْ كلِّ علمٍ مَا يكفينِي، حتى كانتِ العودةُ بعدَ أربعةِ أشهرٍ لأجدَ

أمورًا جديدةً تشرحُ صدورَ الموحدينَ .

بينمَا كنتُ في الشامِ في فترةِ العلاجِ كانتْ أحداثُ معركةِ الفلوجةِ الثانيةِ، فلمْ

أكنْ شاهداً عليهَا. اشتدتِ المعركةُ وأُغلِقتِ الحدودُ واشتدتِ الحراساتُ، فلمْ يعدِ

الدخولُ إلَى العراقِ أمرًا هينًا، وأصبحَ أمرًا مكلفًا على الإخوةِ جهدًا ومالًا، فلمْ

يعدْ يدخلُ إلَّا الاستشهاديونَ. في تلكَ الفترةِ كانَ بقاؤُنَا في الشامِ أمرًا مفروضًا علينَا، ولمْ أستطعِ الرجوعَ إلَى العراقِ إلَّا بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ، بعدَ أنِ انتهتِ المعركةُ وفُتِحتِ الحدودُ.

بعدَ نهايةِ معركةِ الفلوجةِ الثانيةِ توقفَ التنظيمُ عنِ استقبالِ المهاجرينَ لفترةٍ منَ الوقتِ، وكنتُ أريدُ الدخولَ إلَى العراقِ، فاضطررتُ لمراسلةِ بعضِ الإخوةِ منْ جماعةٍ أخرى، وأخبرتُهمْ برغبتِي في الرجوعَ إلَى العراقِ عبرَهمْ. واستأذنتُ أميرِي في الشامِ للسماحِ لِي بالالتحاقِ بهذهِ المجموعةِ، علمًا أنَّ بيعةَ التنظيمِ هِيَ بيعةٌ صغرى أَيْ بيعةُ قتالٍ، وحسبَ مَا علمتُ منَ المشايخِ أنَّهُ يجوزُ الانتقالُ منْ مجموعةٍ قتاليةٍ إلَى أخرى عندَ التنسيقِ بينَ الطرفينِ، ففعلتُ ذلكَ بعدَ أنْ وافقَ أميرِي على انضمامِي للمجموعةِ العشائريةِ في القائمِ، ثمَّ قمتُ بالتنسيقِ والدخولِ إلَى العراقِ .

علاقتِي معَ هذهِ المجموعةِ بدأتْ منذُ دخولِي العراقَ بعدَ الاحتلالِ، أَيْ في أولِ دخولٍ للعراقِ مجاهدًا تحتَ رايةِ التوحيدِ، ومَا زالتْ علاقتِي بهِمْ طيبةً؛ لذلكَ ساعدونِي في اللحاقِ بالركبِ مرةً أخرى. تزامنَ دخولِي إلَى مدينةِ القائمِ معَ تخطيطِ الإخوةِ لهجومٍ على تحصيناتٍ حدوديةٍ تابعةٍ للعدوِّ الصليبيِّ وعملائِهِ منَ الإيزيديةِ -عبادِ الشيطانِ-. هذهِ المجموعةُ العشائريةُ تضمُّ اثنينِ فقطْ منَ المهاجرينَ منْ جزيرةِ محمدٍ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ-، فكنتُ أَنَا الثالثَ. تمَّ تجهيزُ العمليةِ خلالَ بضعةِ أيامٍ .

قبلَ تحركِنَا بيومينِ تقريبًا أرسلَ لِي أحدُ القادةِ في تنظيمِ القاعدةِ -وكانَ يعرفُنِي سابقًا- يستنكرُ عليَّ الانضمامَ لهذهِ المجموعةِ، وقالَ إنَّهَا تقاتلُ قوميةً بتحالفِهَا معَ "كتائبِ العشرينَ" الوطنيةِ، وأنَّ أميرَهمْ لا يقاتلُ الشرطةَ لأنَّهُ لا يرى كفرَهمْ بالأعيانِ؛ ففي إحدَى معاركِهِ معَ شرطةِ الحدودِ وجدَ جنديًّا يصلي وقتَ هجومِهِمْ

على المقرِّ الحدوديِّ فتركَهُ لأنَّهُ خافَ من قتلِ مَنْ يصلي. هكذا انتشرتْ أخبارُ هذهِ المجموعةِ العشائريةِ بأنَّهَا مضطربةُ العقيدةِ .

أخذتُ كلامَهُ محملَ الجدِّ وذهبتُ أستفسرُ عنِ الذي بلغَنِي، فعلمتُ أنَّهمْ كانوا كذلكَ ولكنَّهمْ تركُوا تحالفَهمْ معَ الكتائبِ القوميةِ وصارُوا وحدَهمْ، بلْ يتابعونَ توجيهاتِ الزرقاويِّ ويحبونَ لوْ بايعُوهُ. وأخبرَنِي أميرُهمْ أنَّ الهجومَ الذي نذهبُ إليهِ همْ فقطْ مرتدونَ منْ عبادِ الشيطانِ. ثمَّ قبلَ تحرِكنَا للمعركةِ قامُوا بنشرِ بيانٍ يوضحُ موقفَهمْ منَ القوميةِ والوطنيةِ ويعلنونَ بوضوحٍ أنَّهمْ على العقيدةِ الصحيحةِ .

في عصرِ ذلكَ اليومِ جاءَ الرسولُ بالخبرِ: كلُّ شيءٍ جاهزٌ، العدوُّ تعدادُهُ لا يتجاوزُ عشرينَ (20) رجلًا، والخطةُ مدروسةٌ بعنايةٍ. تحرْكنَا منتصفَ الليلِ. وقبلَ نهايةِ

الطريقِ توقفَ الموكبُ الذي يضمُّ خمسَ سياراتٍ مجهزةٍ بالعتادِ. وتحدثَ إلينَا الأميرُ يذكرُنَا باللهِ ونصرهِ والإخلاصِ، وأنْ لا نغترَّ بعددِنَا الذي يفوقُ عددَهمْ؛ فقدْ كنَّا تسعةً وعشرينَ (29) رجلًا بكاملِ العتادِ. بعدَ كلماتِهِ المؤثرةِ تركنَا لنأخذَ قسطًا منَ الراحةِ قبلَ الهجومِ فجرًا .

صلَّيْنَا الفجرَ ثمَّ انطلقْنَا، وكانَ مبيتُنَا قريبًا منَ المقرِّ الحدوديِّ. كانَ موقعُ العدوِّ على بُعْدِ خمسةِ (5) كيلومتراتٍ فقطْ منَ الحدودِ السوريةِ، ويشرفُ على هضبةٍ كبيرةٍ. بمجردِ أنْ بدا لنَا مركزُ العدوِّ انهالتْ علينَا طلقاتُ الرصاصِ والقذائفُ، ولكنَّ الأميرَ واصلَ طريقَهُ وتوقفتِ السيارةُ على سورِ الموقعِ، وركضَ معهُ ثلاثةٌ منْ خيرتِنَا مقتحمينَ السورَ الذي كانَ سلكًا شائكًا، وأخذْنَا الساترَ ودارتْ بينَنَا

وبينَهُمْ معركةٌ استمرتْ ثلاثَ ساعاتٍ تقريبًا، وكنتُ أموتُ غيظًا ممَّا يقولونَ بصوتٍ عالٍ: "ارجعُوا فنحنُ يأتينَا مددٌ، الأمريكانُ في الطريقِ ".

هكذا كانتِ المعركةُ حاميةَ الوطيسِ حتى سمعْنَا صوتَ الطائرةِ الحربيةِ ثمَّ بدأَ الرميُ علينَا .

[رائحةُ المسكِ - تغييرُ المفاهيمِ]

عندمَا بدأتِ المعركةُ كانَ الضبابُ يغطي كلَّ شيءٍ ولمْ تكنِ الشمسُ قدْ أشرقتْ بعدُ. اشتدتِ المعركةُ، ومضتْ ساعتانِ منَ الوقتِ، صمتَ صوتُ الطلقاتِ منْ داخلِ المقرِّ فجأةً، ثمَّ سمعْنَا أصواتَهمْ يكبرونَ. ظننْتُهُمْ لبرهةٍ منَ الوقتِ إخوانَنَا الذينَ اقتحمُوا المبْنَى، ولكنْ نظرتُ يمينًا فوجدتُ دخانًا يعلو في السماءِ، وإذا

بطلقاتٍ تأتي منِ اتجاهِ ذلكَ الدخانِ. استمرُّوا في الصياحِ: "الأمريكانُ قادمونَ.. هذا المددُ.. اهربُوا اهربُوا!" هكذا كانوا يقولونَ لنَا .

سياراتُنَا العسكريةُ كانتْ فوقَ الهضبةِ، وكانَ الإخوةُ فيهَا يصيحونَ لنَا: "انسحابٌ.. انسحابٌ!" ولمْ نكنْ نسمعُ شيئًا، فلمْ نردَّ عليهمْ، فظنُّوا أنَّنَا قدْ قُتِلْنَا، فانسحبتِ السياراتُ ونحنُ لا ندري. ننظرُ إلَى بعضِنَا مَنْ يتولى الإمرةَ، ثمَّ فجأةً قررَ أحدُنَا أنْ يكونَ هوَ الأميرَ وقالَ: "انسحابٌ.. أوامرُ انسحابٍ". فانسحبْنَا إلَى الهضبةِ. كانَ الضبابُ كثيفًا لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يرانَا، وكانتِ الطلقاتُ تأتي عشوائيًّا، وكنَّا تسعةَ عشرَ (19) رجلًا، بيننَا مصابٌ واحدٌ في قدمِهِ .

عندمَا وصلْنَا لمْ نجدِ السياراتَ، فأخذْنَا أسلحتَنَا وحاولْنَا دفنَ سلاحِ الدوشكَا، ثمَّ ذهبْنَا باتجاهِ الحدودِ السوريةِ؛ فهِيَ على بُعْدِ خمسةِ (5) كيلومتراتٍ ولا يستطيعُ الأمريكانُ عبورَ الحدودِ .

هناكِ نقاطُ تفتيشٍ بينَ الحدودِ السوريةِ والعراقيةِ في حراستِهَا قواتٌ خاصةٌ منَ الجيشِ السوريِّ، وكانَ أهونَ علينَا أنْ نذهبَ باتجاهِهمْ؛ لأنَّ العودةَ بالاتجاهِ الآخرِ تعني المواجهةَ بينَ تسعةَ عشرَ (19) رجلًا بسلاحٍ متوسطٍ وخفيفٍ وبينَ مددٍ فيهِ منْ كلِّ أنواعِ الأسلحةِ .

استمرَّ الإطلاقُ باتجاهِنَا، وداناتُ الهاونِ تسقطُ بجانبِ الطريقِ، حتى إذا عبرْنَا الحدودَ توقفَ كلُّ شيءٍ. أصبحْنَا نمشي باتجاهِ مدينةِ البوكمالِ وبينَنَا وبينَهَا أكثرُ منْ

مئةِ (100) كيلومترٍ. قمْنَا بالاتصالِ بالإخوةِ وأخبرنَاهمْ بمَا حدثَ، واتفقْنَا على نقطةٍ معينةٍ فجاؤوا عندَهَا، كانتْ على بُعْدِ ستينَ (60) كيلومترًا .

عندمَا عبرْنَا الحدودَ السوريةَ وبعدَ حواليْ عشرةِ (10) كيلومتراتٍ أوقفتْنَا دوريةٌ للجيشِ السوريِّ وقالُوا لنَا: "أنتمُ الذينَ كنتمْ في المعركةِ؟"، والأصواتُ كانتْ تصلُ إليهمْ وكانوا يرونَ الطائرةَ الأمريكيةَ تحلقُ قريبًا منَ الحدودِ. قالَ لنَا أحدهُمْ: "نحنُ نقفُ معكمْ ولكنْ لا تأتونَا بأجانبَ.. هلْ معكمْ أجنبيٌّ؟". وكانَ الإخوةُ قدْ حذرُونِي ألَّا أتكلمَ؛ فمهمَا تكنْ لهجتِي ليستْ لهجةً يمكنُ صمودُهَا أمامَ حوارٍ طويلٍ، حينَهَا سيعلمُ الجيشُ السوريُّ أنِّي لستُ عراقيًّا. فقالُوا لِي: "لا تكثرِ الكلامَ؛ فمعَ كثرةِ الكلامِ يفتضحُ أمرُكَ". نظرَ العسكريُّ إليَّ جيِّدًا ثمَّ قالَ: "هلْ معكمْ

أجنبيٌّ؟". قالُوا لهُ: "لَا، كلُّنَا عراقيونَ". ثمَّ قلتُ لهُ : "نعمْ، كلُّنَا عراقيونَ" قالَ: "حسنًا، اذهبُوا " .

ذهبْنَا إلَى نقطةِ الالتقاءِ معَ الإخوةِ، أخذُونَا وكانَ باديًا علينَا الإنهاكُ الشديدُ.

ذهبْنَا وجراحُنَا منْ فقدِ هؤلاءِ الأربعةِ شهداءَ وفقدِ الأسرَى؛ فقدْ قررَ أحدُ الأشبالِ أثناءَ الانسحابِ أنْ يرجعَ في محاولةٍ أخيرةٍ ألَّا يتركَ أخاهُ خلفَهُ، وكانَ قدْ قُتِلَ شهيدًا -نحسبُهُ-، فأُسِرَ هذا الشبلُ، ولاحقًا عرضَهُ التلفزيونُ العراقيُّ كأحدِ المجرمينَ الذينَ تمَّ اعتقالُهمْ في الحدودِ بعدَ تصدي الشرطةِ العراقيةِ لقطاعِ الطرقِ وأجبرُوهُ أنْ يقولَ إنَّنَا قطاعُ طرقٍ على الشعبِ العراقيِّ، وكانَ بينَنَا أجانبُ، وألَّفُوا قصةً في تمجيدِ شرطتِهمْ .

عندمَا وصلْنَا مدينةَ القائمِ كانَ شيخُ العشيرةِ في استقبالِنَا، واجتمعَ خلقٌ منْ أعيانِ المدينةِ وقالُوا لنْ يتركُوا جثامينَ الإخوةِ الأربعةِ فهمْ منْ أبناءِ المدينةِ، كلُّهمْ منَ الأنصارِ. وأرسلُوا عبرَ العشيرةِ رسائلَ في طلبِ ذلكَ منْ عشائرِ نينوَى، حيثُ أُخِذَ الإخوةُ معَ الجيشِ الأمريكيِّ. بعدَ عدةِ أيامٍ جاءتِ الأخبارُ بمَا حدثَ، وانتشرَ خبرُ هجومِنَا، وعلمْنَا أنَّ خسائرَ هؤلاءِ الشياطينِ كانتْ خمسينَ (50) قتيلًا، وأنَّ مَنْ أخبرَهمْ خبرَنَا كانَ بدويًّا يعملُ جاسوسًا لهمْ في الباديةِ على الطريقِ، أرسلَ لهمْ بالثريَّا خبرَ سياراتٍ تتحركُ عليهمْ مغطاةٍ وبهَا رجالٌ ملثمونَ .

بعدَ ثلاثةَ عشرَ (13) يومًا جاءَ البشيرُ بوصولِ جثامينِ الإخوةِ الأربعةِ، وتمَّ التسليمُ بعدَ تهديدِ العشيرةِ للحكومةِ والأمريكانِ بأنَّهَا ستقطعُ الطريقَ السريعَ وتعلنُ عليهمْ حربًا مفتوحةً لوْ لمْ يتمَّ تسليمُ أبنائِهمْ ليدفنُوا في مدينتِهمْ .

كانَ والدُ أحدِ الشهداءِ لا يؤمنُ بأنَّ هذا السبيلَ يوصلُ إلَى جنةٍ وحورٍ، ويرفضُ خروجَ ولدِهِ للجهادِ ويترقبُهُ كثيرًا، لكنَّ الأخَ كانَ يخرجُ منْ وقتٍ لآخرَ منْ وراءِ أبيهِ، وكانَ والدُهُ منْ أغنياءِ المدينةِ ولهُ عشرةٌ (10) منَ الأبناءِ، فكانَ مفجوعًا في مقتلِهِ.

حتى جاءَ هذا اليومُ الذي وصلَ فيهِ جثمانُ ولدِهِ أطرافَ الحيِّ، والناسُ تسيرُ خلفَ الجنازةِ إذْ فاحتْ منهَا رائحةٌ لا وصفَ لهَا إلَّا أنَّهَا امتدَّ عبيرُهَا مَا يقاربُ خمسَمئةِ (500) مترٍ.

فخرجَ أبوهُ في موكبٍ مهيبٍ، يطوفونَ بهَا منطقةَ "حصيبةَ" في القائمِ، واجتمعتِ الجثامينُ منْ بيوتِ أهلِهَا بمواكبَ منْ كلِّ مكانٍ، وعلا صوتُ المآذنِ بالتكبيرِ

والبكاءِ معَ قراءةِ القرآنِ، ووصلتْ إلَى مقابرِ المدينةِ على سفحِ جبلٍ صغيرٍ. وقدْ كنتُ فوقَ الجبلِ أنتظرُ وصولَهمْ معَ شيخِ العشيرةِ وبقيةِ المهاجرينَ. فوالذي لَا إلهَ غيرُهُ لقدْ شممتُ تلكَ الرائحةَ وأَنَا فوقَ المقابرِ وهمْ أسفلَ الجبلِ، وأسمعُ التكبيرَ يعلو، ويدنو الناسُ بهمْ منّي حتى كادَ يُغْشَى عليَّ حسرةً أنّي لستُ معَهمْ لمَا أراهمْ فيهِ منْ كرامةٍ . وقدْ أمرَ شيخُ العشيرةِ أنْ يكونَ مَنْ شاركَ في المعركةِ أولَ مَنْ يفتحُ التوابيتَ التي أحضرُوهمْ فيهَا .

[ليثُ الدوشكَا - العالِمُ أمِ المجاهدُ؟]

دعانَا والدُ الشهيدِ -نحسبُه- أَبُو عبدِ الرحمنِ الأنصاريُّ لوليمةٍ خاصةٍ بنَا، وطلبَ أنْ يحضرَهَا كلُّ مَنْ شاركَ في المعركةِ التي قُتِلَ فيهَا ولدُهُ، كانَ رجلاً منْ شرفاءِ

قبيلتِهِ ذَا مالٍ ووجاهةٍ بينَ الناسِ. عندمَا حضرْنَا استقبلَنَا ومعهُ أبناؤُهُ في ترحابٍ شديدٍ. كانَ لهذا الحدثِ مَا بعدَهُ منْ إقبالِ الشبابِ على الانضمامِ للمجموعاتِ الجهاديةِ في المدينةِ، وجعلَنَا نتحركُ بينَ الناسِ نزورُ هذا ونعودُ هذا ونعزي هذا، وكلُّ هذهِ اللقاءاتِ نختمُهَا بدعوتِهِمْ للجهادِ في سبيلِ اللهِ واللحاقِ بركبِ السائرينَ .

قررَ الإخوةُ في إحدَى المجموعاتِ غزوَ مقرِّ القاعدةِ الصليبيةِ في جماركِ مدينةِ القائمِ، والتي كانتْ محصنةً بصورةٍ كاملةٍ؛ حيثُ يحميهَا منَ الغربِ مركزُ جماركِ مدينةِ البوكمالِ السوريةِ، ومنَ الجنوبِ منطقةٌ مفتوحةٌ منبسطةٌ، ومنَ الشمالِ يمرُّ نهرُ الفراتِ بينَهَا وبينَ جبالٍ حدوديةٍ، ومنَ الشرقِ الطريقُ السريعُ الذي يشقُّ المدينةَ وينتهي داخلَ الجماركِ حيثُ العلوجُ، وعلى جوانبِ الطريقِ بيوتُ الناسِ وأحياءٌ

سكنيةً تعيشُ في حذرٍ، ولا يجرؤُ أحدُهمْ على المرورِ بعدَ مغيبِ الشمسِ في الطريقِ السريعِ أوْ في نظرِ حراساتِ القاعدةِ وإلَّا كانَ الموتُ جزاءَهُ .

لمْ نعلَمْ بهذهِ العمليةِ، حيثُ كانتْ مجموعتُنَا تقومُ فقطْ بقصفِ القاعدةِ بالغرادِ أوِ الكاتيوشَا، ولمْ تهاجمْ يومًا تلكَ التحصيناتِ، حتى جاءَنَا الخبرُ أنَّ سكانَ المنطقةِ المحيطةِ بالقاعدةِ أفشلُوا هجومًا للتنظيمِ بسببِ خوفِهمْ منَ العواقبِ، حيثُ كانَ يخرجُ الرجلُ منْ بيتِهِ إذا رأى الإخوةَ ويرميهمْ بالحجارةِ دونَ أنْ يرَوْهُ كيْ يذهبُوا منْ قربِ بيتِهِ. كانتْ مهمةً شبهَ مستحيلةٍ معَ هذا الخوفِ ممَّنْ حولَ المنطقةِ، لكنْ في اليومِ التالي كانتْ أروعُ الأخبارِ تأتي معَ سماعِ كلِّ المدينةِ صوتَ الانفجاراتِ تتوالَى: ثلاثُ سياراتٍ تحطمُ كلَّ شيءٍ هناكَ في قلبِ القاعدةِ.. سياراتُهمْ رُدَّتْ إليهمْ

وهِيَ مليئةٌ بالمتفجراتِ وعلى متنِهَا أبطالٌ لا يعرفونَ الخوفَ إلَّا منَ اللهِ -نحسبُهُمْ واللهُ حسيبُهُمْ .

كيفَ استطاعُوا خداعَ هؤلاءِ العلوجِ حتى أذاقُوهمُ الويلَ بجحيمًا؟! رافقَ دخولَ السياراتِ مناوراتٌ على جوانبِ القاعدةِ رغمَ كلِّ الصعوباتِ، حصيلةٌ اهتزتْ لهَا أركانُ المحتلِّ: مئتا (200) هالكٍ .

تحركتْ طائراتُ الهليكوبترِ منَ القاعدةِ الشرقيةِ إلَى مكانِ الهجومِ لإنقاذِ الجرحَى، كانتْ تحلقُ فوقَ سماءِ المدينةِ بحذرٍ شديدٍ على أطرافِ السلسلةِ الجبليةِ لتتجنبَ صاروخَ (سام 7) المدمِّرَ، لكنَّهَا لمْ تكنْ تعلمُ أنَّ هناكَ ليثًا يرابطُ عندَ مكانٍ مَا فوقَ مدفعِهِ (الدوشكَا) ينتظرُ فريستَهُ وهِيَ تذهبُ وتأتي عدةَ مراتٍ تحملُ جراحَهمْ

وآلامَهمْ فيهَا، ثمَّ في اللحظةِ التي أذنَ اللهُ فيهَا له أُطلقَ طلقاتِهِ لتحطمَ صنمَهمْ فوقَ الجبلِ .

جنَّ جنونُهمْ؛ كانَ سلاحُ الدوشكَا في ذلكَ الوقتِ أمرًا نادرًا، لا يملكُهُ الإخوةُ لصعوبةِ تحركِهمْ بهِ معَ كثرةِ الطيرانِ ووجودِ الجواسيسِ على الأرضِ، وكانَ أسلوبُ الإنزالِ العسكريِّ عبرَ "الأباتشِي" هوَ الطريقةَ المعهودةَ في الخطفِ والاغتيالِ للمطلوبينَ. بدأتْ طائرةُ الاستطلاعِ تحومُ فوقَ المدينةِ طوالَ اليومِ لترصدَ السيارةَ التي تحملُ الدوشكَا، كنَّا نعلمُ هذا. وبينَمَا نحنُ في نشوةِ الانتصاراتِ هذهِ -والتي تعتبرُ لكلِّ المجموعاتِ فلمْ يكنْ بينَهَا سوى المودةِ والتعاونِ والمناصرةِ- في نحوِ الساعةِ الثانيةَ عشرةَ (12) منتصفَ الليلِ وأَنَا في زمنِ الاستراحةِ بعدَ رباطٍ، أسمعُ التكبيرَ والأخَ المرابطَ يصيحُ بصوتٍ عالٍ: "إنزالٌ إنزالٌ "

الجميعُ يقفزُ خارجَ المقرِّ حاملاً سلاحَهُ، والطلقاتُ تملأُ سماءَ المدينةِ منْ كلِّ ناحيةٍ. رأيتُهَا على بُعْدِ عشرينَ (20) مترًا منِّي لا أكثرَ وهِيَ تقلعُ قبلَ أنْ تحطَّ على الأرضِ؛ مروحيةُ الأباتشِي السوداءُ معَ ظلامِ الليلِ الحالكِ. ارتفعتْ وهِيَ تحملُ جنودَهَا دونَ أنْ ينزلَ منهمْ أحدٌ، ويصدرُ منهَا صوتٌ مخيفٌ كأنَّهُ زئيرٌ مكبوتٌ جعلَ الأطفالَ يعلو صراخُهمْ في البيوتِ. كانتِ اثنتا عشرةَ (12) مروحيةً عسكريةً تنزلُ في وقتٍ واحدٍ في أنحاءَ مختلفةٍ منَ المدينةِ.. هجومٌ انتقاميٌّ .

لمْ تنجحْ كلُّ الطائراتِ في عمليةِ الإنزالِ إلَّا واحدةٌ قربَ مكانِ الدوشكَا؛ فقدْ كانَ الجميعُ مستعدًّا، وانهالتِ الطلقاتُ عليهمْ ممَّا أجبرَهمْ للإقلاعِ قبلَ الوصولِ إلَى الأرضِ. كانتْ معركةُ أرض-جوٍّ مرعبةً معَ تلكَ الأصواتِ التي صممُوهَا داخلَ

الأباتشِي لإخافةِ الناسِ، وكانتِ المعركةُ الأرضيةُ فقطْ قربَ سيارةِ الدوشكَا حيثُ بيتُ شيخِ العشيرةِ .



وبينَمَا أَنَا وبعضُ الإخوةِ نتحركُ بينَ المنازلِ ونستترُ بهَا أثناءَ القتالِ، خرجَ لنَا صاحبُ بيتٍ يترجانَا ألَّا نطلقَ رصاصًا قربَ بيتِهِ فأطفالُهُ يصرخونَ في خوفٍ شديدٍ، طمأنتُهُ وتوقفْنَا. فعلَ شيئًا لا أنساهُ غريبٌ جدًّا، دخلَ بيتَهُ وجاءَنَا بأكوابٍ منَ الشايِّ بعددنَا، ثلاثةٌ (3)، وقالَ: "تدفَّؤُوا". كانَ صوتُ الطلقاتِ أصبحَ قليلاً .

فجأةً أطلقتْ طائرةُ (أف 16) صاروخًا سقطَ على بيتٍ بهِ سبعُ (7) نساءٍ فقطْ، لَمْ تخرجْ منهُ طلقاتٌ، كانتْ بعضُ النساءِ منَ الخوفِ اجتمعنَ فيهِ معًا. صمتَ كلُّ شيءٍ بعدَ هذا الصاروخِ لفترةٍ. علمتُ أنَّهُ كانَ بغرضِ حمايةِ الأباتِشِي التي نزلتْ لتحملَ الجنودَ الذينَ نزلُوا سابقًا معَ جراحِهمْ والهلكَى. تمَّ مغادرةُ جميعِ المروحياتِ وانتهى كلُّ شيءٍ ولمْ يحصلُوا على الدوشكَى. كانَ شهداؤُنَا ليلتَهَا أربعةً (4) فقطْ منَ الإخوةِ وسبعَ (7) نساءٍ منَ الأنصارِ.

[قضيةُ العوامِّ - نهايةُ الرحلةِ]

كانَ أميرُ التنظيمِ في القائمِ جزائريّاً، وشهدتُ لهُ مجلساً معَ زعماءِ عشائرَ بخصوصِ ديةِ رجلٍ قتلهُ أحدُ جنودِ التنظيمِ بشبهةِ التجسسِ.. فقالَ لأهلِ القتيلِ: "الديةُ أوِ

القصاصُ لكمْ ذلكَ، الجنديُّ مخطئٌ واجتهدَ، ولكنْ نتمنَّى منكمْ قبولَ الديةِ والتنازلَ عنِ القصاصِ"، فرضيَ القومُ .

جاءَ بعدَ هذا الأميرِ شابٌّ عراقيٌّ منَ الأنصارِ وترأسَ قيادةَ التنظيمِ في القائمِ، لكنَّهُ كانَ شديداً على الأنصارِ وقدْ أفسدَ بيعةَ إحدَى القبائلِ للشيخ الزرقاويِّ -رحمهُ اللهُ-.. وكانَ يُكثرُ اللومَ عليَّ في بقاِئي معَ قواتِ العشيرةِ هذهِ وترْكِي للتنظيمِ، رغْمَ أنِّي شرحتُ لهُ أنَّ بيعتَنَا ليستْ إمامةً كبْرَى بلْ مناصرةٌ وقتالٌ، فجازَ انتقالِي هذا خصوصاً أنَّهمْ أخرجُوا بياناً تبرأُوا فيهِ منَ الوطنيةِ الجاهليةِ.. وهمْ مَنْ أدخلَنِي إلَى العراقِ فنصرتُهمْ أحبُّ إليَّ .

عندمَا عدْنَا منْ معركتِنَا الأخيرةِ ضدَّ الإيزيديينَ واشتهرتِ العشيرةُ، أرادَ شيخُ العشيرةِ أنْ يبايعَ الزرقاويَّ ويضمَّ قواتِهِ للتنظيمِ.. لكنَّ أميرَ التنظيمِ في القائمِ طالبَهمْ بأشياءَ لا يوافقُ عليهَا أحدٌ إلَّا المحتاجُ للمناصرةِ وليسَ مثلَ هؤلاءِ.. فقالُوا: "لنْ نبايعَ إلَّا في حضورِ الشيخِ بنفسِهِ"، وتعطلَ الأمرُ، هذا كانَ الحالُ حينَ قررَ الأمريكانُ دخولَ مدينةِ القائمِ العراقيةِ، فأرسلُوا رسولَهمُ الوسيطَ المعتادَ يطلبُ منْ شيوخِ العشائرِ إخراجَ المهاجرينَ منَ المدينةِ قبلَ هجومِهمْ عليهَا أوْ يتمُّ حرقُهَا مثلَ الفلوجةِ .

اشتدَّ هذا الأمرُ على العوامِّ وحدثَ لغطٌ وخوفٌ منْ بعضِ الناسِ على عوائلِهمْ، وخرجتْ "عصائبُ العراقِ" في مسيرةِ استعراضٍ للقوةِ؛ فهِيَ كانتْ أقوَى الفصائلِ تسليحاً وأكثرَها رجالاً في المدينةِ. كانَ المهاجرونَ في حوارٍ وراءَ الأضواءِ لينظرُوا

مَا هوَ الصوابُ، وذهبتُ أتحدثُ معَ الأميرِ العسكريِّ للعصائبِ وأقولُ لهُ كلاماً سمعتهُ لا أنساهُ منذُ خروجِي منَ الفلوجةِ: "بعضُ العوامِّ لا يحبونَ المهاجرينَ بسببِ أنَّهمْ جاءُوا ليموتُوا هنا، والأنصارُ يستطيعونَ القتالَ بنَفَسٍ طويلٍ.. يذهبُ إلَى عملِهِ صباحاً ويعودُ ويحملُ سلاحَهُ ليلاً ولا يدري بهِ أحدٌ، يستنزفُ عدوَّهُ وهوَ غيرُ مستعجلِ النتائجِ فهوَ في دارِهِ وبينَ أهلِهِ.. أما المهاجرُ فقدْ جاءَ يطلبُ الشهادةَ فلَا يتحملُ بطئاً أوْ تهدئةً ويمكنُ أنْ لا يتحملَ انسحاباً يوماً مَا " .

ذكرتُ لهُ الحديثَ وقلتُ لهُ: "بتجربتِي أرى أنْ نخرجَ إلَى سوريَا ونترككُمْ تدبرونَ أمرَكُمْ بترتيبِ الصفوفِ والرجوعِ لحربِ العصاباتِ؛ فهؤلاءِ يمكنُ أنْ يفعلوهَا بقنابلِ النابالمِ الحارقِ دونَ نكيرٍ منَ العالمِ كلِّهِ كمَا كانَ في الفلوجةِ ويُبغضَنَا العوامُّ وربمَا يكفرُ بعضُهمْ.. فالأفضلُ أنْ تكونَ مفاوضاتٌ دونَ ضغوطٍ فنحنُ يمكنُنَا أنْ نذهبَ

مؤقتاً لأماكنَ أخرى". قالَ لِي: "كنتُ أستحي منكمْ أنْ أقولَ لكمْ الأفضلُ أنْ نخرجَ جميعاً حتى نحنُ المطلوبينَ ونتركَ شيوخَ العشائرِ يدخلونَ في هدنةٍ بدونِ قتالٍ ونبدأَ مرحلةً جديدةً منَ الاستنزافِ " .

لمْ يتفقِ الجميعُ على رأيٍ واحدٍ.. فالفصائلُ كثيرةٌ وفي بعضِهَا المهاجرونَ همُ الأغلبيةُ.. تمَّ الترتيبُ لِي وبعضِ مَنْ معِي منَ المهاجرينَ للخروجِ إلَى حلبَ؛ فقدْ كانَ الخيارُ الآخرُ هوَ بغدادَ، وكنتُ لا أطيقُ ذكرَهَا منذُ خرجتُ منهَا مغدوراً لا أعلمُ السنيَّ منَ الرافضيِّ. وقررَ البعضُ الذهابَ إلَى الباديةِ وآخرونَ رفضُوا الخروجَ .

عندمَا عبرتُ الحدودَ ليلاً جاءَنِي خبرُ القومِ خلفِي؛ حيثُ ذهبَ شيوخٌ ووجهاءُ المدينةِ للأمراءِ وقالُوا لهمْ: "أخرجُوا المهاجرينَ أوْ نخرجُهمْ نحنُ.. سيموتُ الناسُ وتغتصبُ النساءُ بسببِ هؤلاءِ".. هذا مَا كنتُ أخشاهُ. واصلتُ طريقِي إلَى حلبَ ويتصلُ بِي بعضُ الإخوةِ بأنَّهمْ ورائِي في الطريقِ.. وقدَّرَ اللهُ ومَا شاءَ فعلَ .

مضى أسبوعٌ وبعدَ رفضِ التنظيمِ وبعضِ الفصائلِ خروجَ المهاجرينَ دارتْ معركةُ القائمِ، ولمْ يبقَ ممَّنْ أعرفُ في المدينةِ أحدٌ، بلِ ارتقى جلُّهمْ إلَى اللهِ شهداءَ.. ودخلتْ قواتُ الصليبِ إلَى القائمِ لتبدأَ مرحلةً جديدةً منْ سلسلةِ الاستنزافِ..

وتمنيتُ لوْ كنتُ معَ مَنْ مضى إلَى ربِّهِ، وذلكَ عندمَا عشتُ وراءَهمْ ورأيتُ دورانَ الزمانِ وضعفَ الإيمانِ. فربمَا أصبْنَا وربمَا أخطأْنَا.. لكنْ يبقى حبُّنَا للهِ ورسولِهِ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ- يسوقُ المسيرَ، فودعتُ أرضَ العراقِ بلَا عودةٍ منذُ

تلكَ اللحظاتِ وقدْ سكنَ حبُّ الأنصارِ قلبِي الضعيفَ فهمْ أهلُ الحربِ والسلمِ والكرمِ والنخوةِ.. وأما مَا فعلهُ العوامُّ فلَا تخلو منهُ بقعةٌ منَ الأرضِ.

إنتهى.

وقفاتٌ منْ وحيِ القصصِ

بينَ يديْ وقفَاتِي أريدُكَ أنْ تتذكرَ أنَّ هذهِ اجتهاداتِي البشريةُ في قراءةِ مسيرتِي؛ فمَا كانَ منْ صوابٍ فمنَ اللهِ، ومَا كانَ منْ خطأٍ فمنْ نفسِي والشيطانِ .

الوقفةُ الأولى: فراسةُ المؤمنِ

الأمرُ الأولُ الذي كانَ يغيبُ عنّي في أولِ الطريقِ، كنتُ أظنُّ كلَّ مَنْ معِي في بغدادَ يحملُ دوافعِي في وجودِهِ هناكَ والصدقَ في العملِ؛ لذلكَ أخبرتُ بعضَهمْ

باسمِي الحقيقيّ وبعضِ التفاصيلِ عنّي. ثمَّ اكتشفتُ لاحقاً أنَّ جميعَ المخابراتِ العربيةِ -وهِيَ مرتبطةٌ بطبيعةِ الحالِ بالمخابراتِ العالميةِ- كانَ لهَا عيونٌ في معسكراتِنَا؛ فالقلبُ الطيبُ والنفسُ البريئةُ لا يصلحُ أنْ تغامرَ في هذهِ الأجواءِ. لا بدَّ لكلِّ موحِّدٍ أنْ يدرسَ طريقةَ عملِ عدوِّهِ .

كانَ صاحبِي "مجدُ الدينِ" -رحمهُ اللهُ- يقولُ لِي: "انظرْ إلَى ذلكَ الرجلِ، أكادُ أجزمُ أنَّهُ جاسوسٌ"، فأقولُ لهُ: "كيفَ عرفتَ؟"، فيجيبُنِي: "إنَّهَا خبرةٌ وهبةٌ منَ اللهِ".

كانَ صاحبِي هذا منْ شبابِ الأمنِ الخاصِّ بتيارٍ إسلاميٍّ في بلادِي، وكانَ متميزاً فيهِ قبلَ أنْ يفارقَهمْ بعدَ أنْ عرفَ طريقَ الحقِّ. وكلُّ مَنْ ذكرَهمْ لِي كانوا يختفونَ فجأةً منَ المعسكراتِ، وقدِ اكتشفْنَا أحدَهمْ يأخذُ أسماءَ كلِّ الشبابِ في المعسكرِ منْ جنسيتِهِ. كانتْ بساطةً، بلْ سذاجةً منَّا، بمنحِ معلوماتِنَا للجميعِ .

كنتُ مهتماً أولَ الطريقِ بالسماتِ الظاهرةِ للالتزامِ بالكتّابِ والسنةِ وأبغضُ أهلَ المعاصِي، فأقتربُ منْ هذا وأبتعدُ عنْ هذا لمجردِ السمةِ الظاهرةِ، لكنْ وجدتُ أنَّ هذا الأمرَ ضرَّنِي كثيراً. هناكَ موحدٌ صاحبُ معصيةٍ -مثلاً يدخنُ السيجارةَ- ولكنهُ شجاعٌ ومخلصٌ، وآخرُ سمتُهُ وعلاماتُ الوقارِ فيهِ، ولكنهُ في لحظةٍ يقولُ لكَ: "أخافُ أنْ يكونَ مَا تفعلونَهُ فعلَ الخوارجِ"، وتجدُهُ لا يتورعُ عنْ مصاحبةِ مشركٍ.

حدثَ معِي موقفٌ في القائمِ العراقيةِ، كانَ الإخوةُ يحتاجونَ معلوماتٍ مهمةً وقالُوا لِي: "فلانٌ طالبُ علمٍ ولهُ مكتبةٌ إسلاميةٌ والمعلوماتُ عندَهُ". قلتُ لهمْ: "لقدْ كانتْ بيننَا علاقةٌ طيبةٌ، فأَنَا سآتيكمْ منهُ بالأمرِ". ذهبتُ إليهِ وطلبْتُ منهُ مَا نريدُ،

فتحرجَ أولَ الأمرِ ثمَّ قالَ لِي بكلِّ صراحةٍ: "أخشى أنْ يكونَ علَيَّ إثمٌ إنْ ساعدتُكُمْ"، وأعطانِي شريطَ محاضرةٍ لشيخِ الحرمِ السديسِ عنِ التكفيرِ .

وعكسُهُ موقفٌ معَ أخٍ لا يتركُ الدخانَ، وسمعْنَا أنَّهُ خبيرٌ في المقذوفاتِ، فقالَ بعضُ المهاجرينَ: "لا يمكنُ أنْ يخرجَ معنَا لمعركةٍ وهوَ مصرٌّ على التدخينِ"، وذكَرُوا كلاماً للسلفِ. قلتُ لهمْ: "يا إخوةُ، هوَ موحدٌ لا يشركُ باللهِ، شجاعٌ وخبيرٌ، يخرجُ معنَا وننصحُهُ، ووزرُهُ عليهِ، ونحنُ في حاجةٍ إليهِ". سبحانَ اللهِ، خرجَ معنَا ومَا أخطأتْ قذيفةٌ منهُ مكانَهَا! فصورةُ المجاهدِ الصحابيِّ العابدِ هذهِ يجبُ ألَّا تكونَ هِيَ بوصلةَ هجرةِ مَنْ أرادَ الهجرةَ .

الخلاصة:

- حفظُ معلوماتِكَ الشخصيةِ واجبٌ عليكَ، ويساعدُكَ في ذلكَ أنْ تربيَ نفسَكَ على قلةِ الحديثِ وعدمِ الاندفاعِ في العلاقاتِ .

- التوحيدُ أولاً، وأما المظهرُ فرغْمَ وجوبِهِ فلَا تحكمْ بهِ في طريقِ الجهادِ. والطريقُ يحتاجُ للشجاعِ الصادقِ الذي يحملُ الأمانةَ وإنْ كانَ عاصياً. بلْ دعوتِي تشملُ العصاةَ قبلَ غيرِهمْ إنْ همْ نبذُوا الشركَ؛ لأنَّ الشهادةَ تمحو الذنوبَ جميعاً. فلَا تمنعْكَ المعصيةُ منْ أنْ تنتظرَ حتى تصبحَ صالحاً، بلِ الطهرُ منهَا أمامَكَ .

الوقفةُ الثانيةُ

لا تستعجل

خرجتُ إلى الساحةِ، وكنتُ أقرأُ حديثَ الرجلِ الذي أسلمَ وقاتلَ ولم يركعْ للهِ ركعةً - أسلمَ ثم قاتلَ - ففعلَ ودخلَ الجنةَ؛ حديثٌ في التحريضِ، ورفعِ الهمةِ، وبساطةِ الدينِ. عندما أخبرتُ أبي أني مهاجرٌ إلى أفغانستانَ، قالَ لي: «يا ولدي، أنا لا أحولُ بينكَ وبينَ ربكَ، لكنْ لا تذهبْ حتى تعرفَ أمرَ دينكَ جيدًا؛ فإنكَ ستجدُ كلَّ الفرقِ والمذاهبِ هناكَ، ولو كنتَ فارغَ الوعاءِ يمكنْ أن تضلَّ الطريقَ». بصراحةٍ، تركتُ وصيتَه جانبًا، فشعوري بالتخلفِ وإخواني في المعمعاتِ كانَ يقتلني , قلتُ لهُ ممازحًا: (في الجنةِ يا أبي سأحفظُ هناكَ القرآنَ)

عندما يسرَ اللهُ لي الهجرةَ، وجدتُ أن وقتي الذي قضيتُه في انتظارِ الهجرةِ والسعيِ لها كانَ يكفي أن أتلقى علومًا تحمي لي عقيدتي وتصلحُ لي أمري. فالعلمُ لا يتعارضُ مع الجهادِ والهجرةِ، بل هو أولُ طريقِ الإعدادِ في زمنٍ قلَّ فيه العالمُ في الساحاتِ، وما أهلكَ الموحدَ إلا الجهلُ والزهدُ في العلمِ بكلِّ صنوفِهِ. سأذكرُ أمثلةً لذلكَ؛ لتكونَ الصورةُ واضحةً، وتعلمَ أيها الموحدُ أن الأمرَ مهمٌّ جدًا، وبهِ تنجو، فلا تستعجلِ الثمرةَ كما فعلتُ أنا أولًا. وها أنا بلغتُ 23 عامًا في هذا الطريقِ الذي ظننتُ أني أُقتلُ في أولِهِ، فالفرقُ بينَ أولِهِ وآخرِهِ لا يعلمُه إلا اللهُ .

الموقفُ الأولُ هو قتالي مع جيشِ صدامَ. كنتُ حينها أرى مفتي باكستانَ عالمًا ربانيًا؛ لأنها دولةٌ إسلاميةٌ صنعتِ القنبلةَ النوويةَ لإخافةِ الكفارِ، وسمعتُ فتوى الشيخِ أسامةَ رحمهُ اللهُ، والشيخِ العلوانِ فكَّ اللهُ أسرَهُ، وظننتُ أن الجميعَ يقصدُ

شيئًا واحدًا، وهو القتالُ مع جيشِ صدامَ. لا أعرفُ ما هو حكمُ الانتماءِ لحزبِ البعثِ العلمانيّ، ولا حكمُ القتالِ معهُ .

كلُّ علمي هو الفتاوى فقطْ، ولا أعلمُ أدلةَ من يفتي، فكنتُ خليطًا - أنصارُ السنةِ، والسروريةُ، والتيارُ الجهاديُّ الحمساويُّ، والقاعدةُ - آخذُ من الجميعِ. فوجدتُني في لحظةٍ أعيشُ الحيرةَ وأنا في عمقِ المعركةِ في بغدادَ. هل أفضلُ أن يحكمَ البعثُ وينتصرَ صدامُ، أم يحكمَ الصليبيُّ الأرضَ ونبدأَ بعدها الجهادَ؟ سؤالٌ متأخرٌ، لكنَّ اللهَ لطفَ بي .

يومًا ما وقعَ بيدِنا رجلٌ كانَ يتلصصُ قربَ حائطِ منزلِنا، وهناكَ معركةٌ شرسةٌ تدورُ في أطرافِ المدينةِ. أدخلناهُ البيتَ مقيدًا، وبدأنا التحقيقَ معهُ. ذكرَ سبباً

منطقيًا لفعلِهِ؛ فهو صديقُ صاحبِ البيتِ، جاءَ من مدينةٍ أخرى، ولكنَّه تفاجأَ بالمعركةِ بعدَ وصولِهِ، وعندما اقتربَ من البيتِ شعرَ بوجودِنا، ولا يعلمُ أن صديقَهُ قد تبرعَ بمنزلِهِ للإخوةِ. تنازعنا الرأيَ فيهِ بينَ من يرى تقييدَهُ وحبسَهُ في غرفةٍ، ومن يرى عدمَ جوازِ ترويعِ المسلمِ؛ فهو لم يثبتْ فيهِ خيانةٌ بعدُ. مثلُ هذا الموقفِ وغيرُهُ كثيرٌ في طريقةِ التعاملِ مع الجواسيسِ والمشبوهينَ؛ يحتاجُ الأمرُ إلى علمٍ شرعيٍّ ودرايةٍ بالأمورِ .

قامَ بعضُ الشبابِ العاطلِ في مدينةِ القائمِ العراقيةِ بسرقةِ سياراتٍ تابعةٍ للحكومةِ العميلةِ في مركزِ جماركٍ على الحدودِ الأردنيةِ. السياراتُ كانَ الجيشُ المحتلُّ هو من أحضرَها لمساعدةِ الحكومةِ الصفويةِ. عندما عادَ الشبابُ ومعهم 10 سياراتٍ حديثةٍ، قالَ بعضُ القادةِ في المدينةِ: يجبُ أن تؤخذَ منهم؛ لأنهم ليسوا مجاهدينَ،

ولا تحلُّ لهم. قالَ الشبابُ ردًا عليهم : (لن نعطيكم إياها، وافعلوا ما شئتم، هذا جهدُنا) .

كادتْ تحدثُ فتنةٌ في المدينةِ. بفضلِ اللهِ، اتفقَ الإخوةُ على استفتاءِ الشيخِ أنورِ العولقيِّ رحمهُ اللهُ، فكانَ ردُّهُ شفاءً وحسمًا للخلافِ. قالَ رحمهُ اللهُ: «أخبروهم أنهم إذا انضموا للجهادِ كانَ لهم أربعةُ أخماسٍ، وللأميرِ الخمسُ، وإن رفضوا أن يعطوهُ فلا تسألوهم، ودعوهم؛ فالوزرُ عليهم، وقد تركَ صلاحُ الدينِ الأيوبيُّ رحمهُ اللهُ قطاعَ الطرقِ في زمانِ الحروبِ الصليبيةِ عندما كانوا يقطعونَ الطريقَ على العدوِّ، يفعلونَ ذلكَ دونَ أن يسألَهم عما يأخذونَهُ؛ لحكمةٍ أنهم يضعفونَ عدوَّ اللهِ ولا يؤذونَ المسلمَ». فهدأتِ النفوسُ، وذهبَ عشراتٌ غيرُهم ليأخذوا سياراتِ الحكومةِ. منهم من أعطى الخمسَ، ومنهم من لم يفعلْ .

هذهِ مواقفُ تحتاجُ إلى العلمِ، ولو كانَ بسيطًا، لكنهُ يصلحُ بهِ حالُ المجاهدينَ وعلاقتُهم بالآخرينَ، فما شوهَ صورتَهم في بعضِ الأحيانِ إلا جهلُ جاهلٍ .

حتى في مسائلِ الطهارةِ، حدثَ مرةً أن فقدنا الماءَ والحصى والترابَ وكلَّ شيءٍ عدا الطينَ، فما علمَ منا أحدٌ حكمَ الاستنجاءِ والاستجمارِ في هذهِ الحالةِ إلا طالبُ علمٍ كانَ بيننا .

أخيرًا أقولُ: إن السؤالَ الأكبرَ لأهلِ العلمِ القاعدينَ هو عن تحملِ الأمانةِ. فإن قامَ المجاهدُ بالواجبِ في دفعِ صائلِ العدوِّ وكانَ قليلَ العلمِ، فما يمنعُ العالمَ وطلابَ العلمِ من تصدرِ الأمرِ وفعلِ المأمورِ؟ ولو فعلوا لتغيرَ حالُ الساحاتِ منذُ زمنٍ .

وأخشى أن تكونَ الدعةُ وخداعُ المنافقينَ لهم هو ما زهدَهم في سلوكِ دربِ الصالحينَ. فكم من عالمٍ سمعنا بهِ يغزو في سبيلِ اللهِ، ومؤلفاتُهُ بلغتِ الآفاقَ . هاهو ابنُ المباركِ، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيمِ، والجوزيُّ، وابنُ النحاسِ، رحمهمُ اللهُ جميعًا، وغيرُهم، وما من عالمٍ إلا لهُ قدمُ سبقٍ في الساحةِ يرجو الشهادةَ؛ لذا كانتِ الأمةُ تعلو الأممَ .

فيا عبدَ اللهِ افعلِ المأمورَ، وكلٌّ حسابُهُ عندَ ربِّهِ. لا تدعْ وقتًا تستطيعُ فيهِ علمًا يمرُّ عليكَ وقد فرَّطتَ فيهِ، فلن تبلغَ الغايةَ إلا بالعلمِ الواجبِ؛ لتحفظَ نفسَكَ من الفتنِ.

الوقفة3

الكرامات

وصل ثلاثةُ مهاجرين من جزيرة العرب " نجد " إلى مدينة القائم وفور وصولهم إلى مقرّنا .. جلس معي أحدهم يُخبرني عن أمرهم ومؤهلاتهم التي يأملون أن يفيدوا الإخوة بها .. أحدهم كان مدرّباً للألعاب القتالية وله أحزمة في ذلك المجال ، وعندما إنتهى حديثُنا ذهب مع الآخرين ليتعارفوا مع بقيّة الإخوة .. عندما دخلوا إلى إحدى الغرف كان الأخ أبو هاجر التشادي جالساً يَنظُر إليهم بقلق شديد (هكذا روى لي آخر اليوم مشاعره هذه) .

رأى في صبيحة هذا اليوم رؤية أصابته بالقلق فقد إشتهر الأخ بتأويل الرؤى وكان من طلاب الشيخ علي الخضير "فكّ الله أسره " وقد أفتى له بالتأويل كما ذكر لي

فهي هبّة من الله ما درسها.. رأى فيما ذكر أن هناك إخوة دخلوا الغرفة عليه وفجأة ظهر ثعبان ضخم وكان متحرّكاً بسرعة لكنهم لم يروه فجلسوا عليه وهُم يتحدثون .. وهؤلاء الإخوة لا يعرفهم .

جاءني مسئول التفخيخ يَطلُبُ مني تصوير عملية تشريك يقوم بها لدبابة العلوج .. كنتُ مشغولاً حينها بأمر آخر فقلت له سآتيك بمن يُصوّرها.. ذهبت إلى الإخوة في الغرفة وأخبرتهم بالأمر إن كان فيهم من يُجيدُ التصوير ، تحمّسوا جميعاً ، قال أحدهم أنا أفعل وقال الآخرون نحن نشارك لنتعلّم .. ذهبوا جميعاً إلى ساحة المنزل حيث مكان العمل . ما زال أبو هاجر يشعُرُ بالقلق ويدور حول المنزل هكذا أخبرني لاحقاً .

فجأةً سمعتُ صوتَ انفجارٍ قويٍّ جدًا، تحطمَ زجاجُ المنزلِ كلُّهُ، وتحطمَ معهُ بعضُ الممتلكاتِ. لم أعدْ أرى سوى غبارٍ ودخانٍ داخلَ المقرِّ. لم أُصبْ بشيءٍ، كنتُ في غرفتي بعيدًا. أسرعتُ إلى الخارجِ أظنُّهُ صاروخَ طائرةٍ، لكنَّ المفاجأةَ كانتْ عندما رأيتُ منظرًا لا أنساهُ أبدًا .

أخٌ قُطعتْ أطرافُهُ جميعًا وهو جالسٌ على الأرضِ، والنارُ مشتعلةٌ في ملابِسِهِ، وهو يرددُ: «لا إلهَ إلا اللهُ» بهدوءٍ غريبٍ. كانَ من الأنصارِ عراقيًّا. وأخٌ آخرُ سقطَ بعيدًا وملابسُهُ مشتعلةٌ، وقدَمُهُ قُطعتْ من ساقِهِ، ويرددُ: «يا اللهُ لا إلهَ إلا أنتَ». كأني في حلمٍ. وآخرُ قُتلَ وفاضتْ روحُهُ مباشرةً، وليسَ بهِ سوى شظيةٍ واحدةٍ في رأسِهِ، والبقيةُ جرحى .

اضطربتُ لا أعرفُ ما أصنعُ، ولكنْ كانَ بقربي أخٌ ذو خبرةٍ ودرايةٍ، أسرعَ يقولُ: «بطانيةٌ يا إخوةُ». وبالبطاطينِ غطوهم فانطفأتِ النارُ في أجسادِهِم، وما زالوا أحياءً .

عندها فهمتُ ما حدثَ. كانَ المسؤولُ يعملُ على فكِّ رأسِ المقذوفِ، والأخُ يصورُ، وثلاثةُ إخوةٍ ينظرونَ إليهِ ويحيطونَ بهِ. وحينَ وجدَ صعوبةً في فكِّ - الصمامِ الفيوزِ - ذهبَ لجلبِ آلةٍ خاصةٍ بذلكَ، وقالَ لهم: انتظروا. قررَ الأخُ الأنصاريُّ المساعدةَ يظنُّ الأمرَ هيِّنًا، فأخذَ يطرقُ الرأسَ لعلَّهُ يأتي بنتيجةٍ. وفي اللحظةِ التي دخلَ فيها المسؤولُ من البابِ ومعهُ آخرُ انفجرتِ الدانةُ ليتغيرَ كلُّ شيءٍ .

كانَ في تلكَ اللحظةِ الأخُ أبو هاجرٍ يدورُ حولَ المنزلِ ويقولُ لي: (كنتُ أخشى شيئًا لكنْ لا أعلمُ ما هو، إنهم الثلاثةُ الذينَ جلسوا فوقَ الثعبانِ، وقد أخبرتُ صاحبي أنَّ بلاءً سيكونُ، واللهُ أعلمُ) .

أسرعنا بهم إلى المستشفى، وبعدَ ساعتينِ جاءنا الخبرُ أنَّ فلانًا منذُ أخذناهُ حتى فاضتْ روحُهُ يقولُ : (يا اللهُ جئتُكَ فلا تردني) .

رجعَ الإخوةُ بهم إلى منزلِ الأميرِ، وأهلُ الأنصاريِّ قد توافدوا إلى المكانِ، وصارَ زحامٌ شديدٌ، والناسُ تقولُ: هل هؤلاءِ شهداءُ؟ قد قُتلوا في البيتِ. هل نغسلُهم أو لا؟ واختلفَ الإخوةُ بينهم، وكذلكَ العوامُّ حولَنا . صعدنا إلى منطقةٍ خاصةٍ بالاتصالِ، وسألنا أهلَ العلمِ في يمنِ الإيمانِ. قالَ لنا الشيخُ: إنهم شهداءُ، فقد كانوا

في تجهيزِ العملِ، ومن فصلَ في سبيلِ اللهِ ثم ماتَ كانَ شهيدًا، وفي ذلكَ حديثٌ.

ثم قالَ : (غسلوهم لكي لا تختلفوا، فما ضرهم غسلكم لهم، لأنَّ العلماءَ اختلفوا فيمن أُصيبَ وتكلمَ وأكلَ أو شربَ ثم ماتَ، هل يُغسلُ ويُكفنُ أم لا، كما جرى مع عمرَ الفاروقِ رضي اللهُ عنهُ) .

أخبرنا الشيخُ أنَّ اثنينِ منهم - مهاجرٌ وأنصاريٌّ - قد احترقتْ أجسادُهما، ولا يمكنُ غسلُهما بالماءِ , قالَ لي: (اضربْ بالترابِ فيمِّمهما كما نتيممُ أنتَ) .

ذهبتُ أنا والأخُ أبو هاجرٍ التشاديُّ، ودخلنا على الشهداءِ نحسبُهم، واللهُ حسيبُهم، والناسُ في الخارجِ ينتظرونَ. كانتْ لحظاتُ حزنٍ وأنا أنظرُ إليهم وأتذكرُ حديثَ الأخِ معي حينَ وصلوا قبلَ ساعاتٍ فقط من الآنَ , ثم ها أنا الآنَ أرى جسدًا

أصابَهُ ما أصابَهُ . قالَ لي أبو هاجرٍ: ابدأْ أنتَ يا أخي ,فبدأتُ بضربِ الترابِ، ثم مسحتُ وجهَ الأخِ المهاجرِ، وفعلَ أبو هاجرٍ كذلكَ بالأنصاريِّ .

فواللهِ الذي لا إلهَ غيرُهُ، ما رفعنا أيدينا منهما حتى فاحَ المسكُ من الأجسادِ ومن أيدينا التي مستهما. فنظرَ لي أبو هاجرٍ وصاحَ يكبرُ، ثم كبرتُ بجنونٍ، واشتدتْ ريحُ المسكِ في كلِّ الغرفةِ. ففتحنا البابَ والناسُ ينظرونَ بدهشةٍ، ونحنُ نقولُ: «المسكُ واللهِ». ودخلَ الناسُ الغرفةَ يتزاحمونَ .

خرجتُ أبكي فرحًا، وتركتُ المكانَ لا أدري ما فعلوا ورائي .

الخلاصةُ

التساهلُ مع أمورِ التفخيخِ نتائجُهُ كارثيةٌ .

مسألةُ التصويرِ أحيانًا تصبحُ إدمانًا بغرضِ التحريضِ ورفعِ الهممِ، لكنَّ هناكَ أمورًا تركُ التصويرِ فيها أولى. من هاجرَ بصورةٍ يرجعْ بصورةٍ، واللهُ المستعانُ، فليكنْ ما يرفعُ همتَكَ أنَّ الآمرَ هو اللهُ .

حينَ تضيقُ بكَ الأمورُ لا تخفْ، فإنَّ معيةَ اللهِ لا تتركُكَ في حيرةٍ. فالكراماتُ ليستْ شرطًا لصحةِ العملِ، ولكنها تأتي أحيانًا للتثبيتِ حينَ يشتدُّ البلاءُ، فكنْ مع اللهِ ولا تهتمَّ بعدَها للنتائجِ .

لا تظنَّ أنَّ ما تخططُ لهُ سيكونُ، فهذا الطريقُ فيهِ سالمٌ، ومبتورٌ، وأسيرٌ، وشهيدٌ، فمنذُ فصلتَ في سبيلِ اللهِ كبِّرْ على نفسِكَ أربعًا، وكنْ مستعدًّا .

العالمُ المجاهدُ هو صمامُ الأمانِ عندَ الفتنِ، ولن يسألَ أهلُ الساحاتِ من لا يعلمُ واقعَهم وإنْ كانَ قد أحاطَ بكلِّ كتابٍ، فاجعلْ لنفسِكَ حظًّا عندَ اللهِ أيها العَالمُ .

بقلم عدنان عبسي


Adnan Absi
عدنان عبسي
2026 /1448